مكتبة سيرة

ليف أولمن

خَيَارات

ترجمة: أسامة منزلجي

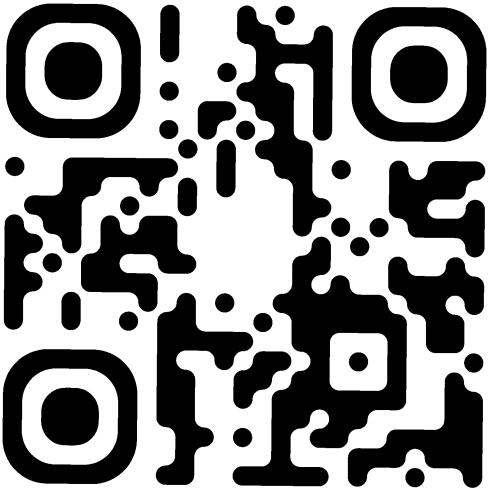

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة

خَيَارات

سيرة

اسم المؤلف: ليف أولمن

Author: **Liv Ullmann**

عنوان الكتاب: خَيَارات

Title: **Choices**

ترجمة: أسامة منزلجي

Translated by: **Osama Menzlchi**

الناشر: دار المدى

P.C.: **Al–Mada**

الطبعة الأولى: **2024**

First Edition: **2024**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

All rights reserved

Copyright © 1984 by Liv Ullmann

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

☎ + 964 (0) 770 2799 999 ☎ + 964 (0) 780 808 0800

☎ + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

☎ + 961 175 2617 ☎ + 961 706 15017

☎ + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

☎ + 963 11 232 2276 ☎ + 963 11 232 2275

☎ + 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

16 5 2025 مكتبة

t.me/soramnqraa

ليف أولمن

مكتبة
t.me/soramnqraa

خَيَارات

ترجمة : أسامة منزلجي

هذا الكتاب مُهدى إلى

ليو تشيرن

رئيس مجلس جمعيّة الإنقاذ العالميّة

الذي قدَّمني إلى إرك

وبالتالي فتح الباب واسعاً

لكل ما حدث لي بعد ذلك.

وهو مُهدى ليس

مع إعجابي فقط بمخلوق عالي الموهبة –

بل زيادة على ذاك مع حبي

لصديق عزيز.

كلمات امتنان

إنني أكنّ أعظم امتنان لأربع نساء مهَّدنَ الطريق لي بوسائل مختلفة لتأليف «**خَيَارات**»:

أُدين بالكثير إلى مارلين كين لودّها الضافي ودعمها لي في حياتي.

لباربرا بول لأنها طبعت المُسوّدات وأعادت طباعتها من جديد وكانت دائماً تمدّني بالتشجيع الخلّاق، حتى وهي تعمل على إنهاء تأليف كتابها الخاصّ.

ولكاثي هوبسون، التي قرأت العديد من النسخ ولم تتردَّد في تخصيص الكثير من وقتها لمدّي بالنُصح والمُشاركة في نقاشات مُثمرة.

وختاماً، إلى لين[1]، لمدّها لي بجو السعادة.

أودّ أنْ أشكر جان – كلود كاريير، الذي ترك آثاراً كريمة من عِلمه في أرجاء الكتاب، وبيدير كابيلن لرسائله المُلهِمة كلها التي أرسلها إليّ طوال سنوات تأليفي للكتاب.

زيادة على ذلك، أُدين لديفيد آوتربريدج لتعليقاته التحريريّة، التي كانت مفيدة جداً لي حتى عندما لم أكن أتّفق معها دائماً.

ما كنتُ لأفكّر في تأليف كتابٍ كهذا لو لم أتقاسم التجارب والوقت مع أصدقائي ومترجميّ في هذا المجال من صندوق الطفولة التابع للأمم المتحدة وجمعيّة الإنقاذ العالميّة.

وشكر خالص لبوب غوتليب، ناشري، ومُحرّري، وصديقي، الذي أولاني ثقته في صنع خياراتي.

ختاماً، شكراً لدونالد لأسبابٍ هو يعرفها. ولإيبل، الذي منحني الحب.

1- لين: ابنة الكاتبة. – المترجم

الجزء الأول

أتغيَّر

مكتبة
t.me/soramnqraa

الوقت 31 من شهر كانون الأول، ديسمبر، عام 1982. أقضي عطلة أسبوعيّة في كوخي القائم على حافة جرف. أمشي متدثرة بالصوف اتّقاءً للريح، وأقف لأتأمّل المحيط. نحن في نهاية العام ورفيقتي كلبة عجوز أحبّها. يكاد النهار يفقد ضوءه، على الرغم من أنَّ وقت الغداء انصرم قبل وقت قصير. الثلوج تغطي أشجار التنوب، وبرك الماء الصغيرة متجمدة على شكل جليد على حجر الغرانيت.

كنت قد تقاسمتُ مع الكلبة وجبة تألّفت من شريحة كبيرة من اللحم لكلٍ منا، أعددتُها بعناية. وعلى الرغم من أنّ رفيقتي ذات القوائم الأربع كانت تفضّل طعامها نيئاً، فإنه اليوم كان مشويّاً. أحياناً أرغب في أداء بعض الأعمال لمصلحة الآخرين بصورة تُدخل السرور إلى نفسي.

إنّه اليوم الأخير من العام، وواقعي الذي أعيشه هو العزلة.

تحتي مباشرة يبدو المحيط بلا حدود، يمتد مُظلماً وبلا نهاية.

أسير على طول الجرف وكلبتي سعيدة، تندفع هنا وهناك، تلتقط العيدان وتسلمها لي لكي أرميها. وعندما أتجاهلها، تتوقف برهة، وتميل رأسها قليلاً.

نتابع طريقنا على الحجارة الرماديّة المنحدرة الزلّاقة. ألمس جذوع الأشجار التي نمرّ بها وتأثّرتْ بتقلبات الأحوال الجويّة.

أميل عبر الجرف وأنظر إلى المحيط.

تحركات المدّ والجزر في البحر، واهتزازاته الخفيفة وأمواجه. أتخيَّل الحياة اللا متناهية واللون والحركة والخطر الكامن تحت السطح الأسود، المتموّج.

البحر لا يختلف عمّا كان عليه في المرة الأولى التي مشيت فيها على هذه الدروب، يجذبني مشهد المياه الذي يكتنف منزلي الذي لم يتغيَّر إلّا من خلال ما حدث لي.

أرى المحيط كما هو الآن، ولكن أيضاً كما كان من قبل. في داخلي يعيش العمق الذي ينتمي إلى ذلك الوقت المتموِّج تحت العمق الذي أتخيّله اليوم.

أراقب من خلال العتمة حركة الجزر تغادر الصخور التي تتلألأ سوداء وأُقرِّر أنْ أمكث وأنتظر ظهور المدّ المتدفق.

الزمن هو رفيقي.

أنا مع البحر وضجيجه الشاسع وأضيع في إيقاعه.

الريح تهبّ، مُرسلة قشعريرة البرد في الكلبة، التي على الرغم من وبرها السميك ترغب الآن في متابعة السير، وتتقافز لتغريني باللحاق بها.

أبتسمُ وأتذكّر كيف كنتُ آخذ كل دُمى الحيوانات معي إلى السرير وأنا صغيرة. ونبحِر إلى والدي في السماء. كم كنّا نقوم برحلات رائعة!

ما زلتُ أحياناً أُخرِج بعضاً من الحيوانات من صناديقها الكرتونيّة، القديمة، المُغبرَّة، وأنظر في عيونها الزجاجيّة وآذانها المُمزّقة، وأتساءل إنْ كنت سأعثر على الفتاة الصغيرة التي هي أنا متّصلة بها على شكل رائحة، أو ذكرى لمسة.

في أمسية شتائيّة باردة أتذكَّر مشروب الشوكولاتة الساخنة وكعكة الفريز تغطيها طبقة كثيفة من الكريما المُحضَّرة في المنزل.

أتذكَّر لعبة الكراسي الموسيقيّة في حفلات أعياد الميلاد. كم كنتُ فتاة صغيرة محظوظة، لأنني كنتُ دائماً أعثر على كرسي لأجلس عليه!

وحفلات عهد الشباب تلك عندما كانت الزجاجة دائماً تدور، وتومض في الغرفة ذات الضوء الخافت وتعجّ بفتيات وفتية متوردي الخدود،

ومتلهفين. والقُبلات والإثارة واللقاءات التي تتم خلف الأرائك، واللمسات المرتبكة التي لا يراها أي شخص آخر.

يُصبح هبوب الريح أقوى. وترتفع الأمواج وتُصبح مُزخرفة بالبياض.

عادت الكلبة إلى منزلنا، وبدأتْ تنبح لكي تُذكّرني بأنَّ الجو في الداخل ممتع. إنني أكره الولوج إلى الداخل.

ملجئي الحبيب، مكان صغير يقع بجوار البحر.

أنظر إلى أسفل الجرف ولا يعود في استطاعتي أنْ أرى البحر.

حركة المدّ والجزر تُعيد إلينا ما كان قد ضاع وتحطَّم وأصبح من نصيب القاع. انتشار الأمواج، وهديرها في الظلام تحتي، يواسيانني في ليلة رأس السنة هذه.

أبتعدُ عن حافة الجرف، وصخب البحر، وأطأطئ رأسي وأنا أمشي نحو كوخي. وتقترب الكلبة مني.

نحن في طريقنا لكي نُشعِل الشموع ونُشيع الدفء في الغرفة ونحتفل ببداية العام الجديد.

أعرفُ امرأةً خرجت من باب. باب إبسن[1].
أعرف ماذا حدث لامرأة اسمها نورا بعد أن غادرتْ؛ خرجت
واستمرتْ في ترك الآخرين يصنعون خياراتها بالنيابة عنها.

نشأتُ، كالعديد من النساء في أربعينيات أعمارهن، تحت سلطة صارمة، حيث خيارات الحاضر، بالإضافة إلى خيارات المستقبل مُتَّفقٌ عليها مُسبقاً.

أمروني وأنا طفلة صغيرة بأنْ أكون لطيفة وهادئة في حضور الأشخاص البالغين. علَّموني غسل الأطباق والقدور، وإعداد الطعام. توقعوا مني أنْ أُصبح زوجة صالحة، أعتني بزوجي، وأُنجب أطفالاً، ولا أفكِّر أبداً في الطلاق. وفجأة، مع بلوغي سن السابعة عشرة، اجتاحت بلدتي فكرة تحرير المرأة. وأخبروني بأنَّ المرأة الحقيقيّة تعيش وفقاً لقُدراتها الخاصّة. ولذلك كان لابد من أنْ أشكّ في كل ما نشأتُ على الاعتقاد بأنّه صحيح.

كنتُ كلما شعرتُ بأنّي قد تحرّرتُ، يُخبرني صوت بأنَّ «هذا ليس من شيَم الفتيات العاقلات». ولكن عندما كنتُ أتصرّف كفتاة صغيرة عاقلة يصرّ صوت آخر على أنَّ «المرأة المتحرّرة تفعل ما تريده هي»

كان لابد لي أنْ أُصغي إلى تلك الأصوات في صراعي في كل يوم من حياتي قبل أنْ أُحدِّد ما أريده *أنا* حقاً.

كانت نساء جيلي يقعن بين حقبتين زمنيتين: ما قبل الاختيار – وما بعد الاختيار.

1- إشارة إلى موضوع مسرحيّة إبسن «بيت الدمية». – المترجم

لكنَّ الخَيار كان يتطلَّب اتّباع مجموعة جديدة من القواعد، ليست بالضرورة متعلّقة بتحرير المرأة، لأنَّ التحرُّر من السلطة يتبعه *ضغط*: حين تنهال كل الأفكار الجديدة على النساء اللواتي لا يعرفن كيف يتعاملن مع استقلالهن الحديث العهد. فالمرأة المتحرّرة تلحق بتيار المُتحرّرات الأخريات اللواتي يُردِّدن ما يقوله الآخرون، وتقرأ ما يقرأون. أي تتكيَّف مع كل ما يتكيَّف معه الآخرون.

ومن الأفكار الجديدة خرجت المرأة «الحرّة» التي تعلَّمتْ أنْ تفهم كل شيء عن طبيعتها الجنسيّة. كانت تُلقَّن متى وأين تشعر، ومتى وكيف تُحدِّد مطالبها الخاصة. وإذا ما حدث واضطربتْ، كانت تشتري كتاباً آخر، وتبحث فيه عن كل بقعة في جسمها يُقال إنَّ هويتها الحقيقيّة تستتر فيها. وعندما تعرَّفت على كل ما يمكن أنْ تعرف عن الهويّة، سعت إلى تحقيق مثاليّة جسمها، جنباً إلى جنب مع ملايين النساء الأخريات المتميزات بحيث توفّر لديهن الوقت والمال. وأصبح تناسُق العضلات واللحم الصلب هما التعبيرين الأساسيين الجديدين بالنسبة إليها. وعندما كانت تفشل في اتّباع حِميتها يغمرها إحساس بالذنب أسوأ من أي إحساس عرفته خلال الأيام التي سبقتْ تحرّرها، وكان وهنُ جسدي أو إحساسٌ متقطِّع بعدم الثقة بالنفس عندما كان السعي إلى الإنجاز الجنسيّ لا يعطي نتائجه المرجوَّة، يُغطّي على أي همّ آخر يمكن أنْ يُصيبها بشأن العالم الذي تعيش فيه.

كان أمام الناجيات درس جديد عليهن تعلّمه: أنْ التكيُّف من أجل راحة المرء الخاصة أمر جيد، ولكن ليس بغرض استرضاء الآخرين.

حتى بعد أنْ نجوت، لم تكن لدي الشجاعة لصنع خيارات. توفرت لي حياة مع خيارات لكنني في الغالب عشتُ كأنَّ تلك الخيارت غير متوفرة. والنتيجة المُحزنة لعدم ممارسة صنع خياراتي هو أنَّ ذكرياتي عن نفسي ليست عن المرأة التي أعتقد أنني هي.

بعض الأشياء لا يمكن تغييرها: كوني وُلِدتُ. وكوني أُشكّل جزءاً من

حركة مدّ وجزر البحر. وفي النهاية سوف تتحطَّم موجتي، ككل الأمواج الأخرى، على الصخور. هذه هي الحتميّة.

ولكن ضمن هذا الإطار لديّ خيارات، وأنا أوصَف بالطريقة التي أصنَعُ بها تلك الخيارات أو أهمل صنعها.

غالباً ما تمنّيتُ لو أبدأ من جديد، وأعود طفلة، وأُحيي مَنْ كنتُ عليه ***حينئذٍ*** وما أردتُ أنْ ***أكون***. غالباً ما تمنيت أنْ أكتشف من جديد في داخلي الفتاة البريئة والممتلئة بالمعرفة قبل أنْ يُعلِّموني حقائق الحياة.

في أثناء بحثي عن براءتي الضائعة، خرجتُ من الباب. وفي ذلك الوقت اعتقدتُ أنني أبحث عن هدف، لكنني عثرت بدل ذلك على معنى الاختيار.

لم أكنْ أعلم هذا عندما خرجتُ من الباب، وكان جزءٌ من رحلتي قد أصبح خلفي.

يجري تحويل «***أتذكّر ماما***» – المسرحيّة المؤثّرة والفكهة – إلى عرض مسرحيّ موسيقيّ. ويخبرني المُخرِج بأنني الوحيدة في العالم التي يستطيع أنْ يُنقّذها معه. سوف يقوم ريتشارد روجرز بتأليف الموسيقى. يقول إنَّ في استطاعته أنْ يجعلني أغنّي – لم يسبق لي أنْ فعلت ذلك. ويقول المُنتِج لي إنَّ دور ماما مأخوذ من نمط المرأة الذي أمثّله في المعتاد، ودائماً مُصاب باضطراب عاطفي.

وصنعنا خياري.

أريد أنْ أقوم بدور امرأة تعمل على التلاؤم مع الحياة العاديّة. أريد أنْ أكون خفيفة الظل قليلاً وأنْ أسمع بعض الضحك. لقد سئمت حياة ممثّلة الأدوار المأساويّة، بكل ما تتعرَّض له من عمليات اغتصاب ومحاولات الانتحار، وبكل اضطرابها العصبيّ وهشاشتها.

سوف أستمتع في كل ليلة بتمثيل مسرحيّة «***ماما***» بكل ما يجري وراء الكواليس. سوف نغني ونرقص معاً. وسوف يكون ذلك ممتعاً!

في ليلة الافتتاح أُجري لقاء تلفزيونيّ حيّ:

المُحاوِر: مرحباً، مرحباً، وأهلاً بك.

أنا: شكراً لكَ

المُحاوِر: حسنٌ، لقد ذهبتِ إلى هوليوود وكان فشلك ذريعاً هناك. هلّا وصفتِ لنا ما جرى؟

أنا: ربما لم نتّفق أنا وهوليوود.

المُحاور: لكنَّ فشلك كان ***ذريعاً*** في هوليوود. هل تعرفين السبب؟

أنا: ليس كل شخص يستطيع أنْ يُغلق استوديوهين للتصوير في عامٍ واحد.

المُحاوِر: ما الذي يجري حقاً في مسيرتك الفنيّة وحياتك في هذه الأيام؟

أنا: إنني لا أُقيِّم حياتي من خلال مسيرتي الفنيّة.

المُحاوِر: (يضحك)

أنا: أودّ أنْ أقول...

المُحاور: (مُقاطعاً) يُقال إنَّكِ شخص خجول جداً، ولكن لديك طفلة هي ثمرة زواج ومن ثم صرتِ تخرجين مع هنري كيسنجر. كيف تفسّرين ذلك؟

أنا: (فترة سكوت)

المُحاور: يبدو أنَّ الأمور تسير سيراً حسناً في هذه الأيام بالنسبة إليك. أسعدتِ مساءً. أسعدني الحديث معك.

يسألني ريتشارد روجرز بأدب «هلّا غنيت لي أغنية صغيرة؟ سوف يُسهّل ذلك عليّ الأمر كثيراً عندما أؤلف أغنياتك».

«لا أجرؤ على فعل ذلك»

يقول العبقريّ العجوز بلطف، «عاجلاً أو آجلاً سوف تضطرين إلى الغناء في كل الأحوال. هذه مسرحية موسيقيّة»

«أوه، أرجوك انتظر – إنني أشعر بخجل شديد من صوتي»

يواسيني قائلاً، «لقد سمعت أنواع الأصوات كلها. لا شيء سوف يُفاجئني. لا تخافي. أنا في حاجة فقط إلى معرفة طبقة صوتك. غنّي أيّ شيء. غنّي «Happy Birthday to you»». يُمسك الرجل اللطيف يدي وينظر إليّ مُشجّعاً.

أغنّي.

أتخيّله أمامي في العشرين من العمر.

***

في بداية عرضنا الموسيقيّ، تمَّ استبدال الناقد المسرحي لصحيفة ***النيويورك تايمز***. فمنذ أنْ كتب نقداً فظيعاً لمسرحية «***أتذكّر ماما***»، أول دور لي والوحيد حتى الآن في المسرح الغنائي، فكّرتُ في إرسال برقية له تقول: **ما زلنا نقدم العرض. ما الجديد عندك؟**

يجب أنْ يدخل العرض لنا على الأقل مبلغ مئة ألف دولار أسبوعيّاً لكي يستمر، وجعل الناقد المُغادر إنجاز هذا الهدف أمراً شديد الصعوبة فمَن الذي سيرغب في مشاهدة نجمة تبدو أشبه «بعبوة من رقائق الذرة عندما تبتسم؟»

على أية حال، تجد نجمة رقائق الذرة وجهة نظر الناقد حول ما يحدث على خشبة المسرح أقلّ إزعاجاً من التدريبات والعروض الأوّليّة في الأشهر الأربعة السابقة.

كانت مشاهدُ جديدة، وأغان ورقصات جديدة تُضاف يوميّاً تقريباً. وبعد الأيام القليلة الأولى من التدريبات، التي أمضيتها في رواق يحدوني الأمل في أنْ يتوفر لدي الوقت لتأدية بعض مشاهدي (المخرج منهمك في تأليف الأغاني والاستماع إلى الأطفال من أجل عرض آخر يُقدّمه)، أفكّر في افتتاح محل لبيع البيتزا أو في أنْ أُصبح رائدة فضاء.

بعد انقضاء خمسة أسابيع أنا ما زلت مبتدئة في الأداء الموسيقي لم يتم تدريبها وأمثّل في العروض الأوّليّة أمام جمهور مدفوع الأجر.

ثمة نص مُعدَّل أعالجه في وقت متأخر يمتد حتى الساعة الثالثة من بعد الظهيرة، وفي الأمسية نفسها قُدّمَ في عرضٍ تجريبيّ أمام 1600 شخص.

المخرج مازال يستمع إلى الممثلين من أجل عرضه الآخر. وسوف يكون لدينا مخرجان ونصف قبل حلول ليلة الافتتاح.

الخوف يحتقن بين الجدران ولا أحد يجرؤ على دخول غرفة تبديل ملابسه بعد العرض لأنّه إنْ كان المُنتج جالساً في الداخل مع تعبير وجه حزين فهذا يعني أنَّ الممثّل الذي يجلس هو على كرسيه يجب أنْ يرحل.

في أثناء الأشهر الثلاثة ونصف التي سبقت تقديم عرضنا في برودواي، تمّ الاستغناء عن اثنتين وعشرين روحاً، من ضمنها ثلاث قطط واثنين من المُعتنين بالقطط.

نقوم بتعميد مدخل خشبة المسرح «الباب الدوّار»

في كل يوم تحتوي سلّة المهملات حزماً من الورق تضم مقترحاتي لإجراء تحسينات دوّنتها في أثناء الليل، عندما يُجافيني النوم. لكنَّ المُخرج، وهو أيضاً كاتب كلمات الأغاني، لا يثق بمقترحاتي، لأنني مجرد امرأة وأجنبيّة. ويتجنّبني قدر استطاعته، على الرغم من أنَّ هذه مسرحيّة غنائيّة تدور حول مُهاجرين نرويجيين وأنا نجمة العمل. إنّه يتجاهل تجربتي الطويلة في العادات النرويجيّة وأيضاً، كما اتّضحَ، يريد مني أنْ أُغيِّر من نبرة كلامي.

ظهرت معرفته الجرمانيّة الشماليّة في العرض بأفضل الطرق. تُعطى ماما أغنية عن ***lutefisk***، وهو طبق خاص نرويجي من سمك القدّ المُغمّس في محلول البوتاس. وعندما أغني الأبيات، «سمك في البراندي، سمك في البراندي، منفوخ قليلاً»، أعرفُ دائماً أنَّ هناك أشخاصاً من النرويج بين المشاهدين، عندما يُعبّرون عن دهشتهم بصوتٍ مسموع.

كلما كان عمر المشتركين في هذه المهنة متقدِّماً، ازداد عدد الذين لن يرغب المرء في العمل معهم أبداً.

في كل يوم خميس، خلال الفصل الأخير، يدخل رجل خشبة المسرح فقط لكي يُطلِق أصواتاً تعبِّر عن استهجانه عندما يُصفق لي الجمهور مُطالباً بإعادة الغناء.

عندما حدث هذا في المرَّة الأولى اضطربت كثيراً وقرّرتُ ألّا أخرج إلى خشبة المسرح من جديد لأنحني للجمهور. وأدرك الجميع أنَّ هذا هراء،

وأنني فقط أستعرض نفسي. ولم أحظ بالتعاطُف، على الرغم من أنَّ المُنتج أغدقني بالأزهار وبالشمبانيا، وهو العلاج التقليدي عندما يغضَب النجم.

على مدى ما تبقّى من ذلك الأسبوع هتف ثلاثة أشخاص «برافو!» من الجزء الخلفي من المُشاهدين عندما قبلت هتافهم وخرجت لأنحني.

كلنا نتساءل إنْ كان الشخص الذي يُعبِّر عن استهجانه مأجوراً، وإذا كان الأمر كذلك، فمَن المستأجر. وعندما يبدأ التعبير عن الاستحسان، نتساءل أيضاً إنْ كانوا مأجورين، وإذا كان الأمر كذلك، فمَن المُستأجر.

مع ذلك، هتاف الاستحسان المأجور يسرّ النجمة التي قورنت حديثاً بعبوة رقائق الذرة، وفي يوم الخميس تبتسم ابتسامة مقتضبة حزينة عندما يهتف الرجل مُستهجناً.

أقضي ساعتين في كل يوم في الإجابة على بعض الدعوات، والتهديدات، وتوسلات الإحسان، وطلبات التوقيع على دفاتر التوقيعات والمواعيد، والهبات، والأزهار، والبرقيات.

يرسلُ سيدٌ عجوز لي شخصيّاً رسالة ساخطة: إنَّ البطاقتين اللتين طلب حجزهما وجد أنَّ شباك الحجز باعهما لشخص آخر. فأرسِلُ إليه ردّاً ودوداً أدعوه فيه هو وصديقته لحضور العرض في أيّة أمسية تناسبه. وأُضيفُ بتواضع أنّه إنْ كان مازال غاضباً منا، فيستطيع أنْ يحضر أي عرض آخر غير عرضنا.

يتّصل بسكرتيرتي ويطلب بطاقات لنفسه ***ولآني*** ولخمسة من أصدقائه، وأيضاً «أنْ تكون في الصف الأمامي، من فضلك» لأنَّ سمعه ثقيل.

إذا دام عرض المسرحية فترة طويلة، خاصة إذا كانت عرضاً موسيقيّاً، ينال الضجر بعض المشتركين في تمثيلها فيفكرون في إضافة بعض الأشياء المُسلية للحفاظ على الروح الحماسيّة.

بمناسبة العرض رقم 150 لمسرحية «***ماما***» اقتحمت غوريلا عملاقة الكواليس حالما أوشكت أنْ أدخل إلى المسرح. فسقطت على الأرض مع صرخة رعب. وبسرعة رفعني عمال المسرح ودفعوني نحو خشبة المسرح.

كنتُ في برودواي أغني «في كل يوم يحدث شيء جميل» فتجمَّدَ جسمي من فرط الخوف، عندما سمعتُ سعالاً خافتاً صادراً من الكواليس. وبطرف عيني رأيت المسؤول عن مخزن الملابس يخلع زيّ الغوريلا.

يتصل رجل مجهول بسكرتيرتي ويطلب منها أنْ تُعدّ له لقاءً معي. فتجيبه بأنني، للأسف، مشغولة جداً بحيث لا يتوفّر لديّ وقت لمقابلة حتى أصدقائي.

تظهر دهشة الرجل الغريب عبر الهاتف: «ولكن حسب معرفتي ليس لديها أصدقاء!»

في غرفة تغيير ملابسي جهاز تلفاز ودائماً أرى فيه نفسي أعلن عن مسرحية «*ماما*»، قائلة «لقد نشأت على سماع أغاني ريتشارد روجرز - وتصوّروا! ها أنا ذي الآن أغنيها على مسرح برودواي!» ثم أبتسم، بطريقة كانت ظريفة وأنا في الثامنة عشرة. (كانوا قد طلبوا مني أنْ أتفادى إخافة الجمهور المتوقَّع وجعله ينفر «بظهوري بأسلوب أفلام بيرغمن») ويريد منتج الإعلان التجاري أنْ أُشير إلى أني تلقيتُ أول قُبلة في أثناء عزف أحد ألحان روجرز. وكانت قبلتي الأولى قد تمّتْ في مطبخ منزلي في إلغيسيترغيت في تروندجيم وأنا في الرابعة عشرة من العمر وكنت أسمع لحن «القمر الأزرق» صادراً من المذياع خافتاً في الخلفيّة. لكنني كنتُ أصغي في انتظار سماع جلجلة الأجراس التي أخبرتني أمي بأنّي سأسمعها عندما أقابل الرجل المناسب. كان مع الشخص الذي قبّلني خاتم عليه نقش الجمجمة كبيرة أعطاني إياه.

بعد ذلك بيومين أخبرتني أخلص صديقاتي بأنه داعب ثدييها على وقع اللحن نفسه.

ذات أمسية كان وودي ألن ينتظر في خارج دار المسرح داخل سيارته الليموزين، وأخذني معه لحضور العرض الأوّلي لعمله الكوميديّ الأخير. لم يكن هناك غيرنا.

طلبَ مني ألّا أضحك، حتى إنْ وجدتُ الفيلم مُضحكاً، لأنَّ ذلك سوف يُصيبه بالخوف إذا لم أضحك على شيءٍ يعتقد هو أنّه مُضحك. ثم استلقى على الأرض مُعطياً ظهره للشاشة وأنا أمضغ قطع الدجاج التي أعدَّتها مُدبّرة منزله؛ بعد ذلك أعادني بالسيارة إلى المنزل. ودعوته لمشاهدة «ماما» إذا وعدني بألّا يضحك.

وضحك.

يتصل إنغمار ليلاً وكان قد قرأ تعليقاتي. يقول إنها لا تعني أيّ شيء. يقول: «إنَّ الأكثر أهميّة بالنسبة إلى الممثل هو أنْ يأخذ معه سرّاً إلى خشبة المسرح. هذا ما يأسُر المشاهدين».

سهلٌ عليه أنْ يقول هذا، وهو الذي انتقل إلى ألمانيا مع أسراره كلها.

هذا ليس سهلاً عليّ أنا التي لا تجرؤ على النظر نحو الأسفل إلى قدميّ وأنا أرقص لأنَّ أحد النقّاد قال إنني دائماً بينما أرقص أحصي خطواتي.

لكنَّ إنغمار يقول إنني يجب أنْ أستحضر أسراراً مرحة، وأُجرِّب ذلك في الأمسية التالية.

لسوء الحظ، نحن في يوم الخميس، والرجل المُستهجن حاضر.

إنني أزداد نفاد صبر، وضجراً. وبوصفي ممثلة أحبّ أنْ يكون كل ما يتعلَّق بالعمل الذي أشترك فيه مُنظّماً قبل ليلة الافتتاح. ولكن كيف أتوقَّع أنْ يصدر هذا عن مُخرجين يعتقدون أنَّ الارتجال سوف يحلّ المشاكل التي تُثيرها واجباتهم المنزليّة غير المُلائمة؟ وبعد مرور ستة أسابيع على ليلة الافتتاح مازلت مُلزمة بالارتجال. إنني أفتقد المُخرجين الذين أعلم أنهم يريدون أنْ تكون اللحظات ***واضحة***: أي أنَّ هذا المشهد يدور حول ***كذا***، وذلك المشهد يدور حول ***كذا*** – وهنا تعزف آلة الكمان، وهناك تعزف آلات الباسون كلها. إنَّ المُخرجين البارعين يعرفون هذا كله وسوف يُنقّذونه. هم الذين يستخدمون الممثلين، وهم الذين يتحدّاهم الخيال الذي يعملون به.

انظر إليّ! استخدمني!

تماماً كما يحدث في الحياة.

لقد أردتُ أنْ أنخرط في مجال التمثيل بموهبة خاصة بي، وأيضاً بتجاربي الخاصة التي مررتُ بها خارج خشبة المسرح. في غرفة تغيير ملابسي، بعد انتهاء العرض، أحياناً أجلس وأفكّر في العروض السابقة – عندما كنت أعيش، على خشبة المسرح، في حالةِ بحثٍ متواصل عن الشخصيّة التي أُجسّدها. ولا أتعب منها.

***

آه، ما أروع تلك الأمسية التي تجتمع فيها كل العناصر معاً.

عندما أمتلئ بدفقٍ كموجة المدّ والجزر ولا شيء يستطيع أنْ يوقفني. لا شيء!

آه، ما أروع تلك الأمسيات التي أتمكن فيها من التمثيل بشغف، على الرغم من أنّه ليس شغفي، بل شغف تلك الشخصيات التي أسمح لها بالتغلغل داخلي.

عندما أتمكن من استخدام ذلك كلّه فإنني أتعرَّف على انفعالاتي الخاصة.

عندما أتمكن من استخدام احمرار وجهي ونبرة صوتي ودموعي.

عندما يكون جسمي هو الذي يتحرَّك،

بينما كل شيء يخصّ شخصيّة أخرى.

آه ما أروع تلك الأمسيات التي يُمكّنني التمثيلُ خلالها لبرهة قصيرة من استقبالِ المزيد من الحياة.

ثم عندما أنظر خلفي إلى اليوم التالي فإنني أتذكّر انفعالات الشخصيّة.

أتذكَّر بكاءها، وصوتها المختنق، وابتسامتها، والخطوة القصيرة التي تخطوها عندما ينتابها القلق.

ثم تأتي متعةُ معرفة أنَّ في استطاعتي أنْ أدعم حبي للأعمال التالية كلها.

وأدعم ما لم أعُد أنا نفسي أشعر به، على الرغم من أنني *أنا* التي تأثّرتُ قليلاً، في إحدى تلك الأمسيات الرائعة، بوعي جديد.

ولكن كيف أستطيع أنْ أستخدم نفسي في هذا العرض الموسيقيّ؟ ليست لدي الكلمات أو الحركات اللازمة لاستعراض ما أعرف عن دوري، كفلاحة – الماما المُحبِّة المنحدرة من عائلة نرويجيّة مهاجرة.

***

عندما لا أكون على خشبة المسرح ولستُ منهمكة بكل الارتباطات الاجتماعيّة التي تلحق بنجمة برودواي ولا ألزم المنزل بما أني في الحياة الواقعيّة أنا ماما نرويجيّة، أقضي وقتي مع الرجل الذي أحبّ.

إنّه عالِم مُحترَم جداً، مُنهمك بعمق في اختراعِ آلةٍ سوف تعمل في نهاية المطاف عمل الدماغ الإنسانيّ. أسلاك، وحواسيب، وأضواء، وأنابيب، وفئران. ولديه مساعدات غاية في الجمال.

كثيراً ما يقرأ عليّ قصائد، أَلَّفَ الكثير منها بنفسه. إنه منهجيٌّ جداً – يُؤنبني بنبرة رسميّة عندما يشعر بأني شديدة التهوّر: «أنتِ لستِ فقط ابنة هذه الأيام، يا ليف، وهذه اللحظة». وكنتُ قد أخبرته بأني أريد أنْ أعيش في «الآن». الشمس مُشرقة وأريد أنْ أضحك معه وأتصرف كطفلة وأنْ أكون ليومٍ واحد فقط بلا ماضٍ أو مستقبل.

« أنتِ نِتاج مليارات اللحظات التي تعود إلى ما قبل ولادتك بزمن طويل. ليف، لا تنسي أنك لستِ بلا ماضٍ. إنَّ جذورك موجودة في تاريخك».

عندما يقول لي مثل هذه الأشياء دائماً أشعر بثِقل في قلبي. على الرغم من أني أدوّن هذا كلّه عندما أختلي بنفسي.

لكنَّ معظم أحاديثنا تدور حول الدماغ. وعندما نتمشّى مسافات طويلة نتوقف في مقاهٍ صغيرة. أحياناً، عندما يكون الجو بارداً، نشرب نبيذاً أحمر ساخناً مع القرفة. أكون غاية في السعادة عندما نتمشى هكذا: أحبّ تورّد وجنتيه وهبّات الهواء عندما تُشوِّش شَعره، وطريقته في المشي – بخطوات قصيرة وحذرة، كأنّه يمشي على أطراف أصابع قدميه، ويوازن إطار جسمه الضخم، والسرور الذي ينضح منه عندما يلج متجراً ويشتري لي كتباً وأسطوانات، ويتقاسم معي أحبّ الأشياء لديه. ولكننا دائماً في النهاية سوف نعود إلى الحديث عن الدماغ.

في صباح أحد أيام الآحاد أسأله «ماذا في اعتقادك سيكون الاهتمام الأساسي للعِلم في المستقبل؟». ما زال الوقت مبكّراً جداً لشرب النبيذ، لذلك نشرب مشروب الشوكولاتة مع الكريما.

يفكّر قليلاً ومن ثم يقول بصوته الصبيانيّ الخفيف الذي يُناقض سنوات عمره الخمسين، «ليس لديّ أي شكّ في أنّه سيكون البحث عن التعريف الصحيح لكلمة **خطأ**. الخطأ هو الفرق بين الكائن الحيّ وعقل الحاسوب. فرقٌ يسمح لطاقة الكائن الحي بارتكاب الخطأ. أو، إذا شئتِ، بالتواصُل مع ***المُصادفة***»

يسكتُ ويتساءل إنْ كنتُ أفهم.

«في الواقع، يا ليف، لا وجود ***للمُصادفة*** بمنطق الآلة. ولكنْ بفضل ***الخطأ*** نستطيع أنْ نتعلّم شيئاً ولا ننساه أبداً وننقله إلى شخص آخر. ولذلك يلعب الخطأ دوراً ضرورياً إلى أقصى مدى في ***البقاء على قيد الحياة***»

ترسم الكريما شكل شفتيه بصورة جميلة.

«فلنفرِض أنكِ تريدين أنْ تقتلي بعوضة، ولديك المُنتَج الكيميائي المثالي لإنجاز ذلك، على الرغم من أنكِ سوف تكتشفين أنَّ بعوضة ذَكراً واحداً من كل مليار سوف يُقاوم ذلك المحلول، فإنَّ هذا الذَكر سوف يعثر بين مليار بعوضة أخرى على أنثى نجت أيضاً من الموت. وسوف يؤسسان معاً سلالة جديدة من الحشرات التي تُقاوِم مبيدك الحشري المثالي. البعوضتان، الناجيتان، بالمقارنة مع الأخريات اللائي مُتن، هما ربما الخطآن، المخلوقان الشاذان، في المجموعة»

يتفحّصني حبيبي مطوّلاً.

أسأله، واضعةً قدمي التي تنتعل الحذاء الطويل الرقبة على حذائه لأحافظ على استمرار التواصل، «هل تحتاج إلى المخلوقين الشاذين؟»

يضحك ويحكي عن صديقٍ له عالِم مُختصّ في الشراغف والضفادع، «كان يجب أنْ تريه. كان يدور حول بركته مُحدِّقاً إلى صِغار الضفادع القافزة، ويهتف: إنني أبحث عن المخلوق الشاذ بينها!»

يسكت ويعبث معي قليلاً بالأقدام.

«أتعلمين، يا ليف، أنَّ ما يحدث بين الحشرات يحدث أيضاً بين خلايانا. سوف يكون بينها أيضاً خليّة شاذة، وهذا ما سيعمل العِلم على استكشافه في المُستقبل: ما *ضرورة* وجود خليّة شاذة؟ ماذا تفعل هناك؟»

صمت طويل. يُبعِد قدميه عن قدميّ.

«سوف يرفض الحاسوبُ دائماً المخلوقَ الشاذ، لأنّه لا ينتمي إلى منطق الآلة»، ويبدو عليه الحزن أمام هذه الفكرة.

أتلهَّف لأستعرض معرفتي: «ولكن ألمْ يقُل أينشتاين إنَّ الله لا يلعب النرد؟ ألم يقُل إنَّ هناك نظاماً لكل شيء؟»

ينظر حبيبي إليّ مُحدِّقاً ومن ثم يقول بصبر، «كان مُخطئاً. هل سبقَ لكِ أنْ سمعت عن شخص يُدعى نيلز بور[1]؟»

جعلتُ صمتي يعني نعم ولا – لينتقي ما يُرضيه منهما.

«سوف يُعلِّمكِ، إنْ استطعتِ أنْ تفهمي كتاباته، أننا مستسلمون *للمُصادفة* ونعتمد عليها»، وشدَّد حبيبي على كلمة مُصادفة برفع كوبه من مشروب الشكولاتة وهزّه قليلاً مُهدِّداً أمامي.

«إنَّ المُصادفة تتحكّم فينا. هي اللعبة السريّة التي تدور بين الجُزيئات»، ويبدأ بالبحث عن النقود ليدفع قيمة الفاتورة وأعلم أنّ لديه موعداً وسوف يُغادرني. وعلى عجل، يقبض على ذراعي وينهض عن الطاولة، قائلاً «إنَّ العِلم يفتقر اليوم إلى المفردات اللغوية اللازمة لهذا. ليست لدينا الكلمات التي تشرح الحركة السريّة للجزيئات». خارج المقهى يومئ لسيارة أجرة. «لو أنَّ في استطاعة العِلم أنْ يمدّنا بتعريف وافٍ لكلمة خطأ، لكان ذلك خطوة عملاقة إلى الأمام»

نحن جالسان داخل سيارة رطبة، لأنّها تُمطِر بغزارة في الخارج والسقف يرشح.

«هل تتوفر لدينا فرصة للنجاة من انفجار نوويّ؟ وبصورة ما أشعر بأنَّ

1- نيلز بور (1885–1962) فيزيائيّ دانماركي؟ فاز بجائزة نوبل للفيزياء عام 1922. – المترجم

هذا تتمّة للحديث. ينظر إليّ راضياً. أعتقد أنَّ أفضل نقطة في حديثي معه هو أنني عرفتُ متى أطرح السؤال الصحيح.

يقول «كلا، يا ليف. لن ينجو أي كائن بشري بشكله الذي نعرفه، ولكن ربما بالشكل الشاذّ، لأنَّ بعض الكائنات التي نعتقد أنها مختلفة كل الاختلاف عنا ولا فائدة ترجى منها، كالعث والصراصير – تستطيع أنْ تنجو من أي نوع من أنواع الانفجار النوويّ، ولا تأبه البتّة»

أفكر في هذا وقد أصبحتُ وحدي في الشارع أمام المبنى الذي تقع فيه شقتي، أراقب حبيبي يهرع مُسرعاً إلى مختبره وحاسوبه.

على الأقل إلى هناك قال إنه سيذهب.

أراقبُ سيارة الأجرة تختفي وأطرح على المسافة الفارغة بيني وبينه السؤال التالي: «إنْ كان عليك أنْ تختاري بين أنْ تمكثي في غرفة ممتلئة بالثقوب أو في العراء في أثناء هطول المطر – فماذا ستختارين؟»

وتختفي سيارة الأجرة.

أنظر حزينة إلى البوّاب الذي لا تبدو عليه الدهشة من وقوفي تحت وابل المطر أخاطب شارعاً خالياً.

«إنَّ المكوث في غرفة ممتلئة بالثقوب أكثر إزعاجاً ومهانة»

أبتسم للبواب ابتسامة فاتنة مشرقة لدى مروري به، «هذا إذا لم تكوني تحبين المطر.»

أحتفظ في كوخي بقِدرٍ قديم للطبخ.

أتيتُ مع حبيبي – وأريته أجمل مكان أعرفه على وجه الأرض. الجروف والأزقة البحريّة – الضوء – والأشنات. ولم ير إلّا القِدْر.

كان قديماً وشديد الصدأ.

ضحك بشيءٍ من الاحتقار وقال: «لِمَ تحتفظين بهذا؟»

تذكّرتُ الشخص الذي أعطاني إياه ذات يوم، وكان يصنع ألذّ الأطباق فيه. تذكّرتُ رائحة الدجاج والزنجبيل. تذكّرتُ الشمس في الخارج، ونظرتُ إلى حبيبي الذي لم يرَ غير الصدأ.

حالما أدار ظهره لي، وضعتُ القدر على النار، مُدركة أنها ستكون إحدى آخر الوجبات التي نتناولها معاً.

غادرني حبيبي في ليل يوم الخميس.

بما أنّه لم يكن قد انتهى من العمل على موضوع الدماغ حتى ما بعد منتصف الليل، ذهبتُ لتناول العشاء مع طبيب نفسي شهير أراد مني أنْ أصنعَ فيلماً من أجله. قال «لن أبيِّن فيه غير وجهك، ومن خلال وجهك سوف تتعرّفين على ألم كونك إنساناً»

سألته «ألا توجد سعادة؟»

«في الأساس هي وجع. ووجهك يصلح للتعبير عن هذا»، ويربت على يدي.

تحدث عن خليلته وأخبرني عن الأوقات الممتعة التي أمضياها معاً. وفهمت من وصفه لها أنها لن تضطر إلى تجسيد الألم والوجع من خلال وجهها.

حالما أوشكت أنْ أقول إنني أريد أنْ أعود إلى المنزل هتفَ لسيارتَي أجرة.

ثم بدأتُ أنتظر مُبدع الدماغ. أحياناً أتمنى لو يكون أكثر سعادة بقليل. ومن ناحية أخرى، إذا أصررتُ على تصديق أنّني في فصل الربيع وانتقدت الشجرة لأنها لم تنبت براعم، فلا ينبغي أنْ أظلم الشجرة إذا لم يكن الفصل شتاءً. إذن الأمر كلّه متعلّق بالفصول، أو بفكرة المرء عن الفصل الذي يعيشه.

أخيراً اتّصل بي هاتفيّاً عند الساعة الثانية صباحاً من كشك هاتف لكي يُخبرني بأنه لن يأتي. فقلت له إنني كنتُ أُفضِّل لو أنّه اتّصل بي هاتفياً من منزله أو مُختبره حِفاظاً على الخصوصيّة، بما أنّه قال إنّه يعمل. «وكأنكَ تندفع خارجاً إلى الشارع هرباً من شيءٍ ما أو شخص لا ينبغي أنْ يعرف بأمري. أمرٌ غريب أنْ يُستدعى المرء في منتصف الليل من كشك هاتف»، قلتُ هذا بعصبيّة، متذكّرة مكالماته الأخرى التي أجراها من أكشاك الهاتف. أثار هذا غضبه إلى درجة أنّه أغلق الخط، ثم عاود الاتّصال بعدها بساعتين ليُخبرني بأنَّ علاقتنا قد انتهت. قال صوته، تتخلله موسيقى وضحك بعض الناس، «إنَّ التعامل معك صعب جداً»

وصلتُ إلى صباح يوم جمعة وعلِمتُ أنَّ أمامي إحدى تلك العطل الأسبوعيّة الكئيبة التي لا تنتهي ويجب أنْ أقضيها. نظرتُ في المرآة ورأيتُ أنَّ تلك المرأة التي وصلتْ إلى منتصف العمر تغزو وجهي باطراد. كان هناك منها في الواقع أكثر من المعتاد. إنَّ إدراكي لنفسي لا يكمن فيما أرى في المرايا.

بدأتُ أُردِّد ببطء أبيات إحدى قصائده أمام الوجه الذي يُعبّر عن الألم بشكلٍ جيّد.

ربما لم أحبّه قط. ربما فقط اختلقْتُه لأنني احتجت إلى ذلك. وربما كان نسختي «الممسوخة». أويت إلى السرير في الفجر وأيقظتني فتاةٌ مُضطربة في الثالثة عشرة من العمر. «لِمَ يُخاطبني والدي دائماً باسم «لين الصغيرة»؟»

أخبرتها «أوه، لأننا معشر الآباء لا نراك فقط وأنت في سن الثالثة عشرة، بل نرى كل ما كنتِ عليه من قبل. الآخرون يرونك كما أنتِ اليوم، أما بالنسبة إلينا فأنتِ أيضاً ذكرياتنا عنك، وأيضاً في غضون بضع سنوات سوف تُضاف إليها ذكريات هذا العام من حياتك. وشيئاً فشيئاً سوف تُشكِّل الذكريات ختاماً صورتك الكاملة، على الرغم من أنكِ لن تكوني أكثر اكتمالاً مما أنت عليه اليوم. والحياة سوف تُضيف فقط تجربتك وتُغيِّر جسدك ووجهك»

قالت، قبل أنْ تستغرق في النوم على سريري، «هل ينبغي أنْ تُعطيني دائماً أجوبة مفرطة الطول؟»

وفكّرتُ في صديقي العالِم وفي دماغ الحاسوب الضخم الذي يخترعه. وارتعشتُ عندما تذكرتُ كل الفئران داخل أقفاصها، تدور حول نفسها، وتزعق، وربما تعبِّر عن استمتاعها أيضاً. كيف لي أنْ أعرف شعور الفأر في حين أنني أحمل دماغ إنسان تطوّر عبر التجارب التي مرَّ بها جسمي؟ لقد قلَّ اشتياقي إليه منذ الآن، وأنا أتذكَّر آلاته وقوارضه.

كفى كلاماً عن وجبات العشاء تلك والنقاش حول الألم المرتسم على وجهي!

مكتبة
t.me/soramnqraa

في طفولتي كنتُ أتوق إلى التمكّن من الركض على سطح المياه الداكنة، تكتنفني الأمواج، وأردتُ اكتشاف الأعماق بشق طريقي سباحة في المياه إلى أنْ يُصبح القاع مألوفاً كما السطح بأمواجه العالية وتياراته وفقاقيعه الصغيرة وزَبَده الأبيض.

تساءلتُ إنْ كنتُ ذات يوم حيواناً بحريّاً، وإلّا لِمَ أتوق بشدّة إلى فيوض المياه؟

نحن سيدات البحر.

سيدات البحر – نعيش في تناقضٍ بين الحلم والواقع.

نعبِّر عن سعينا إلى الحب.

سيدات البحر – نمثّل المشاعر وليس الأفكار.

سيدات البحر – تعاملاتنا مع الوقائع مُشوّشة، وبالتالي نعجز حين يتطلّب الأمر الإرادة والفعل.

نصبو إلى المحيط – المُخيف لكنّه مشحون بالقوة – ويتّصف بطاقة مغناطيسيّة أيضاً بالنسبة إلى بعضنا.

نحن سيدات البحر: ما هو خيارنا؟

الواقع أم الأمل؟

نحن سيدات البحر.

نسعى إلى الحقيقة والفهم، نكتشف في الحياة أنّه لا متّسع للأحلام.

كنتُ أعي وجود لاجئين وجياع. لكنهم كانوا مجرد أعداد، وإحصاءات.

لم ينتبني قط شعور غامر بأنهم أمي وأختي، وبأنَّ جدّتي بينهم، وابنتي، وكل الذين أحبّهم.

مع اقتراب انتهاء عرض مسرحيتنا الموسيقيّة، انضممتُ إلى ممثلين آخرين في برودواي للقيام بحملة لجمع المال من أجل اللاجئين الكمبوديين. وجمعنا مبلغ مئتيّ ألف دولار، وقرّرنا أنْ نقدّمه إلى لجنة الإنقاذ العالميّة. وعندما قدّمت الشيك إلى رئيس إدارة اللجنة، ليو تشيرن، قلت بكل تهذيب: «إنْ كان في وسعي أنْ أقدِّم أي شيء، فأنا مستعدة»

عرضَ عليّ بعض رسومات الأطفال لرؤوس مقطوعة وأشخاص مطعونين. كانت الأهوال التي ارتكبها الخمير الحُمر بالنسبة إلى الأولاد والبنات الكمبوديين ظاهرة عادية كحصول ابنتي على ثوب من أجل المدرسة.

بعد إسدال الستار على عرض مسرحيّة «*ماما*» سافرتُ إلى الحدود الكمبوديّة وإلى مخيمات اللاجئين في هونغ كونغ وماكاو.

شاهدت أطفالاً يواجهون الأهوال - الجوع، والتشرّد والأمراض. كثيرون فقدوا عائلاتهم وأصبحوا وحيدين.

لقد قمت بتلك الرحلة لأنني تساءلتُ إنْ كان في استطاعتي أنْ أستغل

مكانتي كشخصيّة مشهورة وأُثير بعض القضايا، وربما أحصل على بعض الأجوبة.

في الطريق إلى كمبوديا كان يسير إلى جانبيّ رجلان. أحدهما، الذي أمسك بيدي، كان أحد الناجين من غرف الغاز في أوشفيتز، إيلي فيزيل. والآخر كان ألكسندر غينزبرغ، الناجي من غولاغ أرشبيلاغو، وساقه المُعاقة تضرب الغبار.

أُعلِنَ عن رحلتنا بوصفها مسيرة من أجل البقاء على قيد الحياة. كنا نعزّي ضحايا ممارسات بول بوت المرعبة في كمبوديا، ونحتجّ على غزو فييتنام الذي تلا ذلك. أردنا من السجناء خلف الحدود أنْ يعلموا أننا ندرك محنتهم، وأنَّ العالم ليس صامتاً.

كان خلفي وأمامي مئات الرجال والنساء يسيرون في رتل طويل ضيِّق يتألّف من شخصين أو ثلاثة معاً. وعندما ألتفتُّ رأيتُ سلام الغابات التايلانديّة الذي تركناه خلفنا. ووسط صمت الغسق، عكَّر السائرون هدوء طائر خائف فانتقض مُغادراً عشّه.

في أثناء سيري على الدرب الوعر والمغبرّ، لم أكن أسمع إلّا حفيف مئات الأقدام. كان هناك عدد غفير من السائرين، من رجال ونساء يحتجون على القتل والحرب وغياب الخيار. رجال ونساء يُحاولون التعبير عن حزنهم ويأسهم.

أحياناً العالم يُصغي وأحياناً أخرى يفهم. وغالباً ما يواجه العالم مظاهرة كهذه باللامبالاة.

ومع ذلك تستمرّ المسيرات، وتغيِّر حياة المتظاهرين بصورة أو بأخرى.

أسير على الدرب المُغبرّ في مُحاولة عقيمة لدخول كمبوديا.

يقول أحد مُرافقيّ «نحن من بين آخر المتظاهرين في عالم لم يتبقَّ فيه إلّا القليل من الوقت، ولم يتبقَّ فيه حيِّز للأحلام، وحيث الفصل الأخير من العدوان في سبيله إلى تحرير متظاهري الأرض، ليُخبرنا بأنّه لم تعد هناك حاجة إلينا.»

تضمّنت مسيرتنا كبار أطباء فرنسا، وزعماء الطبقة العاملة، وقادة عالم

الأعمال، ورجال دين، وأصحاب مصارف، ومُحامين، وكُتّاباً، ومفكرين، وفنانتين: جون بيز وأنا.

على الرغم من خوفي تقاسم غرفة واحدة مع أشخاص غرباء، وجدتني أنام مع عشرين شخصاً في منزل صغير جداً على الحدود الكمبوديّة، حيث لم يتوفر ما يكفي من الحشيّات للجميع، وكان علينا أنْ ننام بالتناوب. وفي الصباح استيقظنا على انفجار القنابل. وتساءلتُ ماذا أفعل هنا.

كانت حقبة همجيّة من الزمن بالنسبة إلى شعب كمبوديا. أولاً كانت هناك حرب دامت سبع سنين، ثم ثلاث سنوات تحت نظام حكم الخمير الحُمر المتوحش.

نتائج تلك السنوات العشر كانت كارثيّة على البلد. أُعدِمَتْ تقريباً كل الأيدي العاملة الماهرة والمثقفين. انهارت الزراعة، ودُمِرَ نظام النقل، وأُفرِغَتْ المُدن قسراً من سكّانها، وتفتّت العائلات. وعندما زارت وكالات الإعانة للمرة الأولى كمبوديا، كان تسعون في المئة من الأطفال يُعانون من سوء التغذية، وآلاف المدنيين هربوا إلى مخيمات أُقيمتْ على طول الحدود التايلانديّة. والذين نجوا كانوا يواجهون المرض والمجاعة.

حتى الآن مات أكثر من ثلاثة ملايين إنسان.

ثم غزت فييتنام كمبوديا. حدث ذلك في موسم الحصاد، وطفقت قوات بول بوت تُضرم النار بوحشية في حقول الأرز وفي الحزم المحصودة أصلاً.

أردنا أنْ ندخل البلد مع عشرين شاحنة محمّلة بالطعام والأدوية وخمسين طبيباً تمنوا أنْ يمكثوا هناك ويمدّوا أيدي العون. فهدّدنا نظام الحكم القائم بممارسة العنف ضدنا إذا عبرنا الحدود. وأُجبرنا على العودة أدراجنا، وأخذنا مؤننا إلى معسكرات اللاجئين في تايلاند.

هذه الرحلة غيَّرتْ حياتي. إنني ممتلئة بصور لم تكن قبل ذلك تشكّل جزءاً من عالمي.

أرى أطفالاً على شفا الموت من سوء التغذية الشديد ومن المرض. وأرى أناساً من فرط الضعف بحيث يعجزون عن المشي المسافة القصيرة

التي تفصلهم عن مراكز توزيع الطعام؛ ومرضى متمددين على الأرض يلفّهم صمتٌ لا تُقاطعه إلّا نوبات سعال المسلولين.

أقابل أطباء وممرضين خلّفوا وراءهم مستقبلهم الآمن من أجل العمل هنا، العديد منهم لا يتقاضى أجراً. وأراقب القساوسة والراهبات ليس فقط يدعون إلى المحبة، بل ويعملون بمحبّة.

ذات يوم قابلت فتى في العشرين من العمر، يهيم بلا هدى على وجهه حول العالم، رأيتُ صورة لطفلٍ وليد، كتلة من الجلد والعظام، وقرّرتُ أنْ أتوجّه إلى بانكوك لأرى إنْ كانَ في استطاعتي أنْ أقدم المساعدة. الآن أقلَعَ عن إدمان المخدرات، وعرّفني إلى صديقته ذات السنوات الأربع عشرة التي جاءت إلى هنا مع والديها، الطبيبين. في أول الأمر قيل لها إنها أصغر سناً من أنْ تقوم بأي عمل. واليوم تقوم بحمل العجائز من الناس العاجزين عن المشي إلى المراحيض، وهناك تساعدهم وتغسلهم قبل أنْ تحملهم وتعود بهم.

ثمة سيدة تهتز جيئة وذهاباً على سريرها، ومتعلقاتها مع شخصين آخرين مع أغراضهما مكدّسين حولها على السرير. هذه هي حياتها: سيدة عجوز ضئيلة تجلس على السرير وتهتز في أرض أجنبيّة تجهل لغتها، وحيدة مع حلم باليوم الذي سيتغيَّر فيه كل شيء.

من تايلاند أذهب إلى جزيرة ماكاو. يصل لاجئون من فييتنام على متن قوارب ممتلئة عن آخرها، أي الذين لم يقعوا ضحايا للقراصنة وهم في طريقهم إلى الحريّة. وكانت القرصنة ماتزال منتشرة في بحر الصين الجنوبيّ، والذين لا يُقتلون غالباً ما يصلون بعد تعرّضهم للاغتصاب والضرب على أيدي اللصوص. يصل الناجون مذعورين ومعقودي الألسن، بعد أنْ شهدوا ذبح عائلاتهم. والعديد من اللاجئين في ماكاو يرفضون المشي على الشاطئ، والاقتراب من الماء. والبعض الآخر يرفضون حتى أنْ يلتفتوا إلى المحيط، اللاجئون الذين كانوا من قبل صيادي أسماك.

يسود بحر الصين الجنوبيّ القرصنة والعطش والجوع.

في وسط معسكر اللاجئين هناك مأوى للمجذومين الذين تعتني بهم الراهبات بملابسهم الطويلة الرماديّة التي يُسمع حفيفها وسط الحرّ.

في الداخل، أتوقف أمام امرأة طاعنة في السن، تتمدَّد على حشيّتها في وضعيّة الموت.

الصوت الوحيد الذي يملأ الغرفة هو أنينها فقط. أقف مدة طويلة أُحدِّق إليها، ذراعاي تتدليان على جنبيّ في وضعيّة العجز. تربت إحدى الراهبات المارات بي برفق على كتفي وتومئ برأسها نحو المرأة التي فقدتْ أصابع يديها وأصابع قدميها وتهرَّأ جزءٌ من وجهها. انحنيت قليلاً نحو الأسفل.

ضمّتني ذراعا المرأة التي أعرفها، جدَّتي، يا لها من ذكرى عذبة.

أداعبها برفق.

أهزّها بحذر.

الشعر الشائب مجدول. والكتفان هزيلتان. آه، يا جدّتي، أتذكّر ملمس ذراعيك اللتين تطوقانني، وأتذكر عبق بشرتك.

حالما ألمس المرأة العجوز الفييتناميّة أُطلق تنهيد ارتياح وجيزاً، كما يبكي الأطفال الحديثو الولادة عندما يُرفعون ويُحملون. سيدة رقيقة من مكان بعيد، أشعر بحنان ضافٍ. وينضغط الجسم الضئيل والنحيل على جسمي.

بعد فترة طويلة من السكينة، أُعيدها برفق إلى سريرها. تنظر إليّ بخوف وتباشر النشيج من جديد. لا يفعل مثل هذا إلّا حيوان جريح.

تنحني راهبة إلى أسفل، وتعانقها بحبّ وهي تُخبرني بأنَّ هناك دائماً شخصاً ووقتاً لمواساته ومعانقته.

تعبُرُ صورة امرأة ضئيلة خائفة بسرعة وبيأس.

***

صباح يوم إثنين في مطار هونغ كونغ، أنتظر لكي أستقل طائرة متوجهة إلى أرض الوطن. أكتب في يومياتي: شكراً لك يا ربي لأنك منحتني هذه الرحلة. أعدكَ بأنْ أردّ لك هذه الهِبة بمثلها.

في ليل يوم الإثنين على متن الطائرة: «اشتكيتُ تواً لمُضيفة الطائرة من أنَّ للقهوة طعم الكلور»

توفي أوتو فراك، البالغ الواحد والتسعين، والد آنْ فرانك الوحيد المتبقّي من العائلة التي أمضت عامين مُرعبين مختبئة في عليّة ألمانيّة هرباً من النازيين في أثناء الحرب العالمية الثانية، وسجّلتْ وقائعها بأسلوب شديد التأثير ابنته في مذكراتها الشهيرة.
وحده أوتو فرانك نجا من أفراد عائلته من السجن في معسكر الاعتقال.

قمتُ برحلة طويلة، ورجعتُ منها كأنني استيقظت من النوم.
رحلة من الاكتشافات.
سافرتُ إلى حيث يُقيم اللاجئون، وما زلتُ أسافر - أسافر في عالمٍ يضمّ أكثر من ثمانية عشر مليوناً من اللاجئين.

إذا لم أُعاملهم كأفراد، فكيف يمكنني إذن أنْ أعرف الأرقام التي لا تُصدَّق؟

ثمة رجل عجوز هزيل يرتعش يختبئ تحت الغطاء خائفاً حالما ندخل غرفته: «هل سيحدث لي شيء الآن؟»

أخرج من الباب كأنني شاهدتُ العالم للمرة الأولى.

***

«أودّ لو أعود وأقوم بتنظيف المعابد. كم أشتاق إليها، كما أشتاق إلى الجبال القريبة من قريتنا. طبعاً أشتاق إلى والديّ، أيضاً، لكنّي لا أعلم إنْ

كنتُ سأعثر عليهما عندما أعود. سوف أجد المعابد والجبال حتماً. ولكن ماذا عن والدي ووالدتي؟ لستُ متيقّنة من ذلك.

قصة بلا عنوان – بما أنَّ الرسالة لم تكتمل قط:

«... معاملة مؤلمة جداً من جنود بول... أجبروا إخوتي وأخواتي وأبويّ على العمل في معسكرات الاعتقال التي أنشأوها... يا لها من مذبحة رهيبة... واضطهاد رهيب... إنَّ روحي تعيش وحيدة يائسة... عندما تمَّ القضاء على بول بوت رجعتُ لأبحث عن عائلتي... لم تصلني أكثر من بضع كلمات مفادها أنَّ أفراد عائلتي كلهم قُتِلوا... ثمانية أطفال، وأمي، وأبي... آه، يا ربي... لم تعد لدي غير الدموع أذرفها... أنا وحيدة...»

ما أفظع أنْ يُجعَل المرء غريباً، وأنْ يعيش على تربةٍ لا يستطيع أنْ يمدَّ جذوره فيها.

يا لها من خسارة لا يمكن أنْ تُعوَّض.

فتاة صغيرة في حوالي السادسة من العمر في مُعسكر اعتقال ضخم.

تعتمر قبعتي وتحمل حقيبة يدي، وتُمسك يدي بحزم، شاعرة بالفخر لأنها وحدها من بين حشد كبير من الأطفال تحظى بهذا الموقع الخاصّ مع زائرة راشدة.

ولكن فجأة تعطي طفلة أخرى قبّعتي وحقيبة يدي ويدي، وتستدير نحو صبي صغير يبكي، فترفعه، وتواسيه.

ما أجمل ابتسامتها وعنايتها بشخصٍ آخر حتى وهي في لحظة وضعٍ متميِّز، وما أجمل شعورها بالمسؤوليّة وسط حالة تميُّزها الخاص...

لو أنكَ تفتح قلبي، لوجدتَ الذكرى العذبة لأطفالٍ لم يعودوا غرباء.

صبي صغير يهمس: «أحياناً أبكي، ولكن فقط عندما تُمطر الدنيا – لكي لا يراني بقيّة الأطفال»

السؤال الهامّ ليس: «هل نحن مذنبون بما أصابهم؟»، على الرغم من أنَّ الشخص السلبي الصامت غالباً ما يكون مذنباً على قدم المساواة كما المُعتدي.

لكنَّ الإحساس بالذنب هو سجن الانفعالات، ويوقِف عمليّة التغيير والالتزام.

السؤال الهامّ هو: ما هي الفرصة المتاحة للنجاة للذين شهدوا البؤس من بيننا؟

طوال أيام تجمّعتْ إحدى العائلات معاً حول أحد الأسرَّة في إحدى المستشفيات لأنَّ الأب مريض وكلهم يُريدون أنْ يلازموه ويتقاسموا الألم معه.

كتب ليو تولستوي يقول: «أجلسُ على ظهر شخص، وأخنقه وأجعله يحملني، وفي الوقت نفسه أُؤكد لنفسي وللآخرين أنني أشعر بالرثاء له وأتمنى لو أُضيء دربه بكل الوسائل المُتاحة ما عدا النزول عن ظهره»

تبيَّنَ لي أنَّ كولومبوس لم يكتشف أميركا، لأنَّ أميركا هي التي اكتشفته: أصبح كولومبوس كما نعرفه فقط عندما قابلتْه قارة. وهو قابل القارة.

لقد اكتشفتني فتاة في مخيَّم للاجئين، وأنا اكتشفتُها؛ عَرَضَتْ عليّ طبيعة حياتها.

الآن أريد أنْ أعرف المزيد. أريد أنْ أكتشف معنى الحياة بالنسبة إلينا جميعاً، وكيف نستغلّها، وما إذا كان الحصول عليها أمراً ممتعاً، وما الهدف من وجودنا، وما فائدة الأصدقاء، ولِمَ هناك أناس يُعانون الوحدة.

أريد أنْ أكتشف الشعور بالحياة عند بدايتها.

أريد أنْ أكتشف الشعور بالحياة وهي تبلغ نهايتها المحتومة.

أريد أنْ أكتشفَ لأننا نريد أنْ نُكتَشَف.

ترك لنا أوتو فرانك مذكرات ابنته. كانت محطة الوقوف الأخيرة في حياتها هي قبل أنْ تُرسَل إلى معسكر الاعتقال ببضعة أيام فقط، وكتبت تقول: أعتقد أنَّ في الأعماق السحيقة، كل البشر طيّبون»

حقلٌ مملوء بالأزهار البريّة، وسماء حافلة بالنجوم.

أنفاس الأول تغلّفني، وتدفعني أرقّ العطور إلى الابتسام، بينما أرفع وجهي نحو السماء. وبهدوء أتمنى أمنية: «ليتني أعشق من جديد. ليتني أجد مَنْ يعشقني»

يُقال إنَّ النجم الساقط يُحقِّق للمرء أمنية. لكنني تمنيت اثنتين.

الناس في بلدي، النرويج، يعيشون بالقرب من الطبيعة، من البحر والجبال، ومن تعاقب الفصول، وضوء شمس منتصف الليل، وظلام أمسيات الشتاء. وكما أنَّني أتشكّل من العناصر الأولى، فإنني بدوري أُحدِّد العناصِر.

أنا مملوءة بالقصص الخياليّة، بالأناشيد، والعفاريت، والأقـزام والأساطير. إنَّ روعة قصص عهد الطفولة تجتاح واقعي بالشغف.

وأنا طفلة، كانت الشجرة هي تلك النقطة الزرقاء الرائعة التي تحيط بها أشياء حمراء وصفراء واستطعتُ أنْ أرسمها. وبعد أنْ أخبرني البالغون مرات عديدة بأنَّ الأشجار الحقيقيّة لا تبدو كشجرتي تفحّصتُ نقطي ولم أعد أرسم بتلك الطريقة بعد ذلك.

كم أنا في حاجة إلى المخيّلة! كم أشتاق إلى عُلبي الصغيرة بما تضم من مزيج من الألوان وإلى رائحة الدهان والإحساس الرائع بوضع ضربة سميكة من اللون الأحمر على قطعة كبيرة فارغة من الورق.

وفي أيام الواقع الذي أعيشه الآن، أشتاق إلى وهج عهد الطفولة حين كان كل شيء ممكناً.

سوف أدعوه قابيل.

جاءني في وقتٍ من حياتي كنتُ في أثنائه مستعدة لعبور وادٍ على متن قوس قُزح، ولأنْ أعيش وهم الحب، وأؤمن بأحلامي، ولأنْ أنطلق في الجو مع الطيور، وأخترق الحدود كلها.

الوقت أوائل الربيع، وبوادر الأزهار تغادر سرير شتائها وتمدّ سيقاناً نحيلة نحو الشمس التي لم تُصبح دافئة بعد. ومن السطح، تسقط قطرات صغيرة من مطر اليوم السابق. على جذوع الأشجار لمسة من اللون القرنفليّ، عُقدٌ مشرقة من خشب البتولا أطرافها المُدبّبة ذات لون أخضر فاتح. ما أجمله من يوم! الناس يسيرون أزواجاً على الطريق، وداخل المنازل، يُضرمون المواقد وأستطيع أنْ أشمّ رائحة الدخان.

من حيث أقف، أرى المُحيط وأعداداً متناثرة من الجزر الصغيرة. الضوء في هذا الصباح من شهر نيسان يُذكّرني بضياء الربيع في النرويج عندما يولَد كل شيء من جديد. أنا بعيدة جداً عن أرض الوطن. نحن نصنع فيلماً في ضواحي مدينة لندن.

قبل أنْ أُستدعى للوقوف أمام آلة التصوير، يقترب مني.

كنتُ أتوقع وصوله مع فريقه في العمل في اليوم التالي لكي يُجري معي حواراً مدّته ساعة لمصلحة محطة تلفزيونيّة تشيكوسلوفاكيّة.

هو طويل القامة وشديد الوسامة، ولا يبتسم، وعندما أُحيّيه لا يذكر لي اسمه: «لقد أتيت قبل موعدك بيوم»

بعد قليل، وبينما يراقب أحدنا الآخر في صمت، يُخبرني بأنه لا يستطيع أنْ يُجري الحوار من دون أنْ يعرف عني بعض المعلومات، هكذا يعمل دائماً. ويطلب مني أنْ نلتقي ونشرب كأساً معاً في مساء ذلك اليوم. فقط لساعة من الزمن.

بدل أنْ أرفض، أوافق.

يبتسم العامل المسؤول عن وضع المساحيق الذي يصل كلامنا إلى سمعه. بعد ذلك أمزح معه وأضحك. «ربما يكون رجل حياتي!»

عندما أدخل البار أجده في انتظاري، على الرغم من وصولي قبل

الموعد المُحدَّد بعشر دقائق. كانت بذلته البيضاء، التي ارتداها في الصباح، قد أضحتْ مُجعّدة. وتساءلتُ إنْ كانت الوحيدة التي لديه. شعرتُ بأنَّ في وجهه رقّة وأردتُ أنْ أخبره بذلك. لكنني لم أقُل شيئاً. ليس حينئذٍ.

ألاحظ أنَّ اتّخاذ القرارات ليس من سِماته القويّة لأنّه يفكّر مليّاً في الاحتمالات المختلفة للمشروبات وكأنَّ حياته كلها تعتمد على ذلك. وأخيراً، يطلب إحضار ويسكي، ويتبيَّن أنّه لا يشرب أي نوع آخر. وعندما يتحدث عن رحلته من تشيكوسلوفاكيا إلى لندن، أشعر كما لو أنّه الشخص الوحيد الذي يُسافر. وألاحظ انغماساً في التشاؤم في شخصيته. لا أحبّ فيه هذه الصِفة، ولكن، طبعاً، في هذا اليوم الأول ليس ذلك هاماً.

يداه جميلتان – كبيرتان بأصابع طويلة وقويّة.

أخبره، عندما يسألني إنْ كنتُ أعيش وحدي، بأنني انتهيت تواً من علاقة طويلة وصعبة. فيضحك عندما أقول إنني في حاجة إلى وهم الحماية.

فيعلن «كم أنت امرأة قوية». أقول إنني أتمنى أنْ أجد مَنْ ينتبه إلى شعوري بعدم الأمان. أقول إنني مترعة بالأحلام. فلا يسمعني.

حالما أهمّ بالمغادرة، يُخبرني بأنّه مفتون بوجهي، ويريد أنْ يلمسني. ويفعل. يُخبرني بأنّه خطَّطَ لإجراء هذا الحوار الصحفي بعد أنْ أمضى وقتاً طويلاً في الاهتمام بالإصغاء إلى آراء الآخرين. كان مُتعباً، لا مبالياً، ويشعر بالاشمئزاز. ويُخبرني بأنّه لم يعد يؤمن بالجمال وبمعنى الكلمات ؛ بأنّه كان يجلس أمام وجهٍ جديد في كل يوم وأخيراً لم يعد يفهم ما يقوله الوجه. ولم يأبه. لم يعُد يتمكن حتى من سماع صوته هو. واستمرَّ في نطق الكلمات التي كانت ميّتة بالنسبة إليه في حين كان يرغب حقاً في البكاء وفي الضحك، في الكراهية وفي الحب. وأصبح عبد التلفزيون الشهير.

إنّه يجلس مُحدِّقاً في كأسه في بارٍ خافت الإضاءة بعيداً جداً عن أرض وطنه مع امرأةٍ غريبة. أعتقدُ أنه يأمل في أنْ تكون هذه المرأة هي التي سوف تُخلِّصه من إحساسه بالوحشة.

في اليوم التالي ونحن نُجري الحديث كان لا يزال يرتدي بذلته البيضاء،

خلع ساعة يده ووضعها بيننا على الأريكة الطويلة حيث نجلس. يريد أنْ يعرف شيئاً عن إنغمار بيرغمن.

في حين أريد منه أنْ يتعرَّف عليّ.

بينما أحكي قصّة حبٍ قديم، أفكِّر في إمكانية حدوث علاقة جديدة.

في أثناء خضوعي لإجراء الحديث معي أقول الكلمات التي كنتُ قد قلتُها قبل ذلك مئة مرّة. إنَّ معظم المُحاورين يطرحون الأسئلة نفسها.

أعلم أنّه يعتقد أنّه ***هو الذي*** يدفعني إلى قول تلك الكلمات. وأراقبه، متسائلة إنْ كانت ستربط بيننا علاقة حب، أم أنّه سوف يغادرني مع صوتي المُسجَّل على شرائط ووجهي المُصوَّر على شريط سينمائيّ. إنه شديد الثقة بنفسه، على الرغم من إدراكي لاحقاً أنَّ تلك مجرد واجهة لإخفاء حيائه الشديد. ويتّضح أنّه لا يهتم بما عليّ أنْ أقول، بما أنّه كان في الغالب ينظر عالياً إلى السقف في أثناء كلامي. وكان في الليلة السابقة قد نظر إليّ مُطوّلاً، وهو يضحك سرّاً كأنّه مطلع على سرٍ ما عني. ولاحقاً عِلمتُ أنَّ تلك هي طريقته للتعبير عن إحساسه بعزلته وهو سكران.

في أثناء إجراء الحديث أُخبره كيف شجّعني إنغمار وألهمني. وكيف ألهمَ كلٌ منا الآخر. وقبل أنْ أعرفه لم أكن مُبدعة كثيراً. بل لقد كتبت سيناريو فيلم لأنّه اقترح عليّ ذلك، ولكن عندما قرأه قال إنّه شخصيّ بشكلٍ مُبالغ فيه، وإنني لا أعرف أي شيء عن كتابة الحوار. بعد ذلك أصبح إنغمار يُراقبني وأنا أكتب كأنَّ ذلك يُثير فيه الغضب الشديد. وحتى بعد أنْ أخفيتُ السيناريو داخل درجي كنتُ ألمح على وجهه ذلك التعبير.

أصفُ للشخص الغريب من تشيكوسلوفاكيا علاقة تعود إلى زمنٍ بعيد عشتُ خلالها داخل جدران ناعمة من أشعة الشمس والرغبة والسعادة. وأقول للرجل المدعو قابيل «لا شيء يمكن أنْ يؤلمني بعد الآن»

نسافر أنا وقابيل إلى قرية صغيرة قريبة من بريست على الشاطئ الفرنسي. يبدأ الفصل يتغيَّر من الصيف إلى الخريف.

نقضي أسبوعاً معاً في كوخ عتيق دهنه باللون الأزرق قبل سنين عديدة

المالكُ الذي يؤجّره بضعة أشهر في كل عام للسياح. ويبدو كأننا كنا دائماً نشكّل جزءاً من هذا المنزل الصغير، نتعّود على إيقاع هدير المحيط الذي نستطيع أنْ نراقبه من نافذتنا.

كنتُ قد زرت بريست مرة واحدة قبل ذلك - في الربيع. الفصول هنا تختلف عن تلك التي أعرفها جيداً في النرويج. في الوطن أراقب براعم الربيع الخضراء وهي تتحول إلى بتلات ذكيّة الرائحة تملأ روحي طوال شهرين بالفرح قبل أنْ يُلوِّن الخريف الأشجار والأرض بإحساسٍ بالرحيل. ما زال حملٌ ذهبيّ يُخفي الشتاء الذي ينتظر حتى يثب، كحيوان برّي يشعر بالبرد. فصول لا يمكن أنْ أتمسّك بها. وكل منها شديد القِصَر، ما عدا فصل الشتاء.

أمّا الآن، مع قابيل، في بلدٍ كل التغييرات فيه تجري برهافة، وكل شيء يمكن رؤيته بسهولة.

وحده المحيط هنا يبدو مهيباً. تقاسمتُ مع قابيل حركتيّ المدّ والجزر، وأصبحنا جزءاً منهما، وحركتهما هي حركتنا، نتقدَّم ثم نتراجع من جديد، دورة من الحركات نستطيع أنْ نبرع بها ونفهمها. المياه ترتفع، وتغمر اليابسة، ووسطها الأسماك وأعشاب البحر والعوالق. غذاء. ثم المشهد بعد أنْ تنزلق المياه متراجعة:

نراقب القرويين من عجائز وشبان يتزاحمون ويلاحقونها، هم مزيج من الرصينين والمرحين. بعضهم يبحث عن الأصداف ويضعها داخل سِلال خشنة مصنوعة يدويّاً، لكي تُباع في السوق في وقتٍ لاحق من النهار. والأطفال يجمعون الأسماك الصغيرة التي تبقى داخل برك وتجمعات مائيّة صغيرة. يقول قابيل، مُمسكاً يدي بحزم بيده، ويجرني راكضاً خلف البحر المتراجع، «ها هي وجبة إفطارنا»

الهدير - ألم يكن هناك هدير يلحق المياه مباشرة؟

نراقب متعجبيَن على الدرب تغيُّر المشهد العام، جمال الصباح الباكر عندما تترك مياه المُحيط، المنزلقة على الرمال، بنعومة، بنعومة، دروباً جديدة على الشاطئ، ولمعان الغدران الصغيرة التي لا تدوم أكثر من وقت قصير، ولكن في أثناء دوامها تكون في حالة حركة دائمة.

ثم هناك الضوء الاستثنائي – الشمس وهي تعبث في المياه، وحُبيبات الرمل تُرسل ضوءها الخاص الثاقب. وصانع أواني الفخّار عجوز يأسُر ذلك الضوء داخل مزهريات رماديّة بسيطة، وكلها بهت لونها كثيراً بما أنَّ الضوء هنا قويّ إلى درجة أنَّ الألوان تكاد تزول.

تحاول طيور النورس السريعة أنْ تختطف حيوانات بطليموس الرمل الصغيرة التي تمدّ أعناقها لكي تمتص كمية من الماء قبل أنْ تختفي من جديد، ثم تغوص، بسرعة، إذا حالفها الحظ، طلباً للأمان.

تمدّنا حركة الجزر بأنواع المحار اللذيذ كافة، من أجل وجبة صباحيّة من المحار. وقابيل يحمل سكيناً في إحدى جيبيه وبعض ثمار الليمون في الأخرى. وأحمل أنا النبيذ الأبيض. نجلس على الكثبان، ونأكل ونحن نراقب صياداً يدهن قاربه بألوان زاهية. ونُصغي إلى هدير أمواج الشاطئ، إلى أنْ نسمع صفير تغيّر حركة المدّ والجزر.

قوارب الصيد، التي كانت قبل ذلك بقليل تستقر على اليابسة الجافة، تُصبح طافية – ترتفع بقوة المياه. ويختفي شاطئنا ذو اللون الرمادي والأبيض، ويُصبح الهدير قويّاً ومترامي الأطراف. ويهرع الصياد نحو قواربه وينشر أشرعته على عجل، فلكي تعود إلى مرساها بأمان يجب أنْ تعود قبل تغيّر حركة المدّ والجزر.

أعشاب البحر، التي كانت ميتة وشاحبة قبل قليل، تعود إلى الحياة باللون الجديد الذي يمنحه لها الدفق، بينما تتعلّق الأسماك الصغيرة والأصداف بأوراقها كأنها مُرصّعة بالأحجار الكريمة.

في كل يوم نشاهد هذه المعجزة: امتداد شاطئنا هناك عارياً – مُتاحاً للجميع. ومن ثم انتشار الأمواج التي تُغرِق كل ما شاهدناه ولمسناه.

تأثرنا كلانا بالقِوى الهائلة للطبيعة. وذات يوم أشاهد برعم وردة بحر حالما يعود مدّ الماء. كأننا في فصل الربيع. ولكن في يوم مغادرتنا، أتساءل إنْ كانت حركة المدّ والجزر هي التي تركتْ أثرها عليّ أكثر من أي شيء، وليس هو.

في عيد مولد لين الثالث عشر أهداها جدّها، آرثر، بطاقتين للاشتراك في رحلة قنص إفريقيّة. وشرطه الوحيد هو أنْ أكون رفيقتها الوحيدة في الرحلة.

أتردَّد: إنني منهمكة في نشاطات متعلقة باللاجئين الكمبوديين، وكنتُ أيضاً بعيدة أصور فيلماً، وأريد أنْ ألزم المنزل بعض الوقت. زيادة على ذلك، كان قابيل قد ترك وطنه وجاء ليُقيم معنا في النرويج، وعندما وصل قال لي «لقد أحرقتُ جسوري كلها»

لكنها هديّة استثنائيّة، شيء يبقى في ذاكرة لين وذاكرتي، وننطلق. وأكتب لآرثر:

«لا أجد أسلوباً مناسباً لشكرك على هديتك للين ولي، لسماحك لنا أنْ نتقاسم الأسرار ونتبادل الثقة التي لا تُتاح لنا في أرض الوطن، وقضاء أمسيات جميلة وطويلة بعد أنْ تحدث لنا أمورٌ رائعة في أثناء النهار، والاستلقاء على سريرينا مُتعبتين لكننا غاية في السعادة، نتهامس كطفلتين صغيرتين.

صحيح أننا نتبادل رواية القصص ليلاً، أما التناغم وتقاسُم السرور عندما يكون أحدنا في الثالثة عشرة والأخرى في الأربعين؟ فكلا، يحدث هذا فقط في أحلامي.

أتمنى أن أمنحها الحب، أريد لها أنْ تشعر بالأمان. لعلمي كل احتياجاتها في اللحظات التي لا أنجح خلالها إلّا في إظهار خوفي الخاصّ لها.

لا أريد لها أنْ تبحث عن أشياء في وقت لاحق من حياتها أعجز عن منحها لها في الوقت المتاسب. أريد لها أنْ تتجنّب البحث العقيم عمّا لا يمكن العثور عليه إلّا الآن.

نقوم أنا ولين برحلة صيد في إفريقيا: أمٌ في الأربعين وابنة في الثالثة عشرة، كلتاهما تواجهان حدوث تغيّرات في حياتهما. نتقاتل ونتصالح ومن ثم نتقاتل من جديد. في نظرها، ليست هناك إلّا أشياء قليلة أستطيع القيام بها بشكل صحيح في هذه اللحظة.

إنَّ ما تقوله إحدانا للأخرى وأحياناً ما تصرخ به كل منا في وجه الأخرى تحت أشجار النخيل لا يعني الشيء الكثير. الكلمات لا تُعبِّر عن حقيقة مشاعرنا.

لين لا تريد مني أنْ أعتقد أنها سعيدة. الرسالة التي تريد أنْ تنقلها إليّ هي أنها تكره الرحلة برمّتها.

وصلنا إلى عالم غريب علينا نحن الاثنتين. وتسمح لي فترة وجيزة من الوقت بإبداء ومضات سريعة من الحماس. ثم تتذكّر أنها ليست سعيدة وتظهر عليها من جديد علائم الامتعاض.

مائدة إفطارنا موضوعة تحت شجرة مهيبة وتسقط قطع من أزهارها البيضاء داخل كؤوسنا من عصير البرتقال. العصافير تدور حولنا، وتجلس على حجرينا وعلى أكتافنا وتتناول الطعام من أيدينا، وريشها بألوان قوس قُزح. ويقع أحد العصافير صريع حبها، ويُريح رأسه قليلاً على عنقها الدافئ، ويُغرّد قليلاً كأنّه يُكلِّم نفسه. إنّه صوت النعيم.

هنا تضحك، وتنسى تماماً أنها تضع مُقوِّماً لأسنانها. ويملأ هواء الصباح صدى السعادة والتعجّب.

ثم تُخبرني بأنها ضجرة وتسأل إنْ كان هناك في الجوار جَمَل تستطيع أنْ تمتطيه. كانت تعلم أنَّ في حوزتنا بطاقتين للذهاب بسيارة جيب، وعندما أُذكّرها بذلك، تُبلغني بأنها لم تأت إلى إفريقيا لكي تجلس في سيارة كريهة الرائحة. وتقول أنا عجوز، عجوز. فأقول إنها تتصرف كطفلة صغيرة. وتبتعد عني. ترفرف، ترفرف عصافيرنا الاجتماعيّة وتطير منتشرة في الاتجاهات كلها.

لا أتحرك، أبقى جالسة بقلبٍ مُثقل، أراقب قامتها الضئيلة المنتصبة. وعند منعطف الخيمة الأخيرة تختفي. ترفرف، ترفرف في قلبي.

يا ابنتي، لا ترمقيني بتينك العينين. إنني أدرك من خلالهما أنكِ غاضبة، وأنّه حتى إنْ كنا نضحك معاً، ولو قليلاً، فلابد أنني ارتكبتُ شيئاً أثار سخطك.

ليتك تعلمين أنَّ بلوغ سن الأربعين صعب صعوبة بلوغ سنك. أنا لا أعرف الكثير عن مختلف أنواع الانفعالات التي تجتاحني بقدر عدم فهمك للتغيّرات التي تطرأ داخل جسمك. إنَّنا كلتينا سوف تضطران إلى الانتظار بضعة أشهر أو بضعة أعوام لمعرفة مَنْ سنكون بعد ذلك. لا شيء واضح ولا شيء مؤكَّد. ولكن كل شيء سوف يحدث. سوف يزدهر جسمك الصغير والضئيل، ورموشك السوداء الرائعة سوف ترمي ظلالاً على وجنتيك الورديتين عندما تحمرين خجلاً بسبب أسرارك، ولنْ يعود جسمي مياساً من جديد ولن تعود حركاتي قويّة ورشيقة كالسابق عندما كنتُ بريئة في معرفتي بها. بل قد أنظر إليك وأحسدك ومن ثم أشعر بالبؤس من شدة الإحساس بالخزيّ. إنني أراقبك الآن تتكئين على جذع شجرة تحت الضياء الخفّاق للبراعم البيضاء. أنتِ لا تعرفين أي شيء عن المغامرة التي تنتظرك وأنت تتحولين إلى امرأة. اليوم أنتِ فقط تعانين، غير مُدركة أنكِ طوال الوقت تتفتحين كوردة.

أجلسُ هنا في بلدٍ أجنبيّ – ذراعاي معقودتان على صدري، مازلتُ أتمتعُ بالكثير من الشباب المُخزَّن داخلي. أنا مثلك، مُفعمة بالشك؛ ومثلك، أريد شخصاً يتفهَّم انعدام شعوري بالأمان، على الرغم من أنني لا أتحمّل سن مراهقتي الخاصة كما أتحمّل سن مراهقتك. أريد اهتماماً خاصاً بقدر إرادتك أنتِ له.

في هذه الأثناء، وبينما نحن نتغيَّر وبينما ننتظر حدوث تغيُّر، عليكِ أنْ تحاربي وتُظهري غضبك لكي تتحرّري مني – أنا التي تجد من الصعب إدراك أنَّ الوقت يقترب الآن لأستسلم وأدعك وشأنك.

لا ينبغي أنْ يُذهلنا التغيّر، كما لا ينبغي أنْ يُهددنا. نحن في حالة حركة دائمة، ابنتي وأنا.

عندما تعود، أخبرها بأنني سوف أُرسلها إلى مدرسة داخليّة. أقول «لم

أعد أتحمّل». في المعتاد هذا القول يُحدِثُ تأثيراً قوياً – إنها تخاف نظام ذلك الوسط أكثر من أي شيء. وتبدأ بالبكاء وأشعر بالانهيار. ما هذا الأمر الفظيع الذي أقوم به! أحياناً عندما أشعر بالعجز أستغل معرفتي بخوفها. أخبرها بأنني لا أعلم ماذا أقول. وأطلب منها أنْ تسامحني.

داخل امرأتين يهتاج إعصاران. وعلى الرغم من أنّنا مازلنا في فترة الصباح الأولى لنا في إفريقيا، نستغرق في النوم من جديد داخل خيمتنا، تعانق كل منا الأخرى بقوة.

بعد الظهيرة، نقود السيارة إلى داخل الغابة البريّة. النباتات وأعداد هائلة من المخلوقات في حالة صراع دائم من أجل البقاء، في علاقة حميمة مع الفصول الجافة والمُمطرة. الضجيج يصدر عن سيارتنا – عن الدواليب التي تسير على الرمال الجافة والحجارة، وعن الرياح، والجدول الجاري الذي نمرّ به. وفوقنا، تحترق الشمس.

مررنا بلبوءة مع جرائها الثلاثة الصغار، وكلها تدور وتتعثّر على العشب الأصفر، المحروق، متجاهلة كليّاً الدخلاء المفتونين. لم يكن الذكر مرئيّاً. وقيل لنا إنّه أحياناً يأكل أولاده، ولهذا لا يُسمح له بالحضور إلّا في موعد التزاوج.

تقول لين «يُشبه والدي»

أتجاهل قولها.

لاحقاً يترجل السائق لكي يتفحص الدواليب الخلفيّة.

«هل الأمر خطير؟»

يقول بهدوء «آه، نعم. إذا كانت هناك أسود قريبة، فسوف تهاجمنا»

«ولكن هناك أسود قريبة فعلاً»

«آه، نعم، إذن تستطيعين أنْ تلتقطي صورة جميلة»

عندما يعود إلى سيارة الجيب يُخبرنا عن زوج ركبا معه قبل بضعة أشهر، حين ما انفكّتْ الزوجة تلتقط صوراً في أثناء تعرّض زوجها للهجوم.

نتجاوز فيلاً وحيداً، مُسالماً، بجوار نهر جاف تقريباً. يبدو ظريفاً جداً،

يعبث ببعض الأغصان، ويخطو خطى راقصة ثقيلة، وجذعه يتأرجح ببطء إلى الأمام والخلف في تناغم مع الصمت.

وبعد مسافة أخرى، حيث يتّسع مجرى النهر، نقابل فهداً يأكل بهدوء فريسته التي كانت حيواناً مُمدّداً على الأرض، نرى قوائمه الصغيرة المتيبّسة تتجه نحو السماء، وقد توقف جسمه في أثناء الفرار.

ونمرُّ بتماسيح وأفراس البحر، لم تكد تبدو وسط المياه الموحلة. وتقترب رؤوس غريبة من النهر كأنها تقارن بين عبق المياه والهواء في الأعلى. ويفور القاع الموحِل.

ثمة حركات سريعة خلف الأكمات لحيوانات لا نراها.

ثم صمت أعمق.

كنا أنا ولين مبتهجتين. شعرنا بحريّة المساحة المُشجَّرة والمكان الذي كنا نقود السيارة فيه، وبإثارة أنفاس حيوان وحيوانات تركض لتنجو بحياتها، وبعشب خشن، وبفراغ فجّ، وبالحضور الغريب والمُهيمن للبريّة.

«عزيزي قابيل، ارتقينا جبل كينيا وتركنا أسماءنا في الصندوق الصغير في موقع ما في أعالي الجبل. إنني أجلب إليك حجراً. أنظر إليه الآن بينما أكتب هذه الرسالة، ويغمرني الاشتياق»

وسط عُري الليل الإفريقيّ، تتجرد الطبيعة من كل شيء ما عدا واقع حيواناتها ورياحها ونباتاتها – وكلها تتحرّك، وكلها تتنفّس.

هذه الليالي لم تعُد صامتة أكثر من تلك التي تعوّدنا عليها، لكنَّ الأصوات لها حضور ماديّ أكثر. حتى عندما لا نسمع شيئاً يبقى الصمتُ حيّاً، يُخبرنا بأنَّ ثمة أمراً يحدث في الظلام.

خارج خيمتنا يجلس رجل عجوز متدثراً بغطاء أخضر اللون. إنّه حارسنا. وفي الداخل نحكي حكايات همساً. أُخبرُ لين كيف وُلِدَت الأرض:

« في يوم من الأيام خرجت نارٌ من السماء، وأصبحت الغيوم حمراء

اللون. آه، يا لين، ليتك رأيتِ تلك النار. وكان الله موجوداً، أيضاً. وهو الذي أضرمَ النار. وعندما أدخل الخوف إلى قلوب مَنْ كانوا أشراراً في السماء، أخمد اللهب، بالمطر. واستمرّ المطر ملايين السنين بلا توقف. والأمطار كلها سقطتْ على قطعة من السماء انفصلت في أثناء الحريق. تلك كانت الأرض والآن أصبحت في الختام مغمورة بالمحيطات بسبب كل تلك الأمطار. ومن ثم، بعد مرور ملايين أخرى من السنين، جرَّ حيوان صغير نفسه إلى الشاطئ وتلك كانت بدايتنا أنت وأنا»

ران الهدوء على خيمتنا فترة طويلة، ومن ثم تساءل صوت لين في الظلام:

«أعتقد أنّي أتذكَّر متى كنتُ أعيش في المحيط. كنتُ حزينة»

في الخارج سمعنا هدير الغابة. ثمة أسد يغط في مكان قريب، وفيل يزعق، ومن كل مكان ينبعث هسيس صرّار الليل.

أحدِّق خلال الليل الذي اجتاح خيمتنا فأجد ظلالاً وخفقاناً داخل السواد. داخل روحي تعيش امرأة أخرى، أصغر سناً مني بكثير. فتاة صغيرة، هي أنا، تبتسم للا أحد قبل أنْ تستغرق في النوم. الدنيا ظلام والليل حلّ – ونحن هناك.

نسيم صباح عليل مع شعور منعش بالسكينة؛ استيقظتُ وقدَّم لي الرجل العجوز المتدثّر فنجاناً من الشاي الساخن. يبتسم كأنه فرح من حلول يوم جديد.

على مسافة قصيرة من خيمتنا يمضغ قطيع من الفيلة بضجيج مسموع، وثمة حماران وحشيّان وزرافة واحدة، تبدو غريبة عن المكان قليلاً، تحدِّق إلينا.

***

«عزيزي العم آرثر. شكراً جزيلاً على هديتك. الشيء الأكثر إمتاعاً كان ركوب المنطاد. وكيف ننساب في الجو داخل السلّة، وتحتنا كل تلك الحيوانات. وعندما هبط المنطاد وارتطمنا كلنا معاً، ضحكنا جميعاً. وشربت أمي الشمبانيا مع بعض البالغين على الإفطار. شكراً لك من لين»

أبتسم اليوم وأنا أكتب هذا، متذكرة خيمة صغيرة في إفريقيا. الأصوات المرتفعة تصدر من الداخل، من الغضب ومن الضحك. انسياب مشهد طبيعي مُضاء بنور الشمس. فتاة صغيرة نائمة، يدها تغطي مُقوِّم الأسنان الذي تعتبره قبيحاً جداً. مُقوِّم أزالته منذ وقتٍ طويل.

أطلُّ من نافذتي على مشهد جرف نرويجيّ. إنها تُمطر. مشهد طبيعيّ مختلف كثيراً عن ذاك الذي شاهدناه في رحلتنا الإفريقيّة. أكاد أرى الكثبان الرمليّة وأشعر بحركة المدّ والجزر وأسمع الطيور وأعرف الحيوانات وأشعر بكل ما ينمو.

إنها أرضي.

آه، انظرْ إلى قوس القُزح. إنها رحلته الخاصّة وهدفه الخاصّ.

في الخارج مشهد طبيعيّ شتويّ تُضيئه أنوار خافتة. الثلج ينهمر مُرفرفاً. يمكن أنْ تكون لحظة سِحريّة. ولكن في هذا المشهد الطبيعي العشّاق غرباء. عاشوا طويلاً من أجل أنْ يكتشفَ كل منهم جمال الآخر؛ كل شيء آخر في حياتهم تُرك ليستريح. والآن هم يستيقظون ببطء، وحان الوقت الآن ليرفضوا ويُدمروا كل ما اكتشفوه.

أولاً تعرَّفَ كلٌ منّا إلى الآخر بينما الطبيعة في ذروة رونقها. كانت مروجُ موطنِه حيث مشينا معاً تتوهّج بأزهار الخُزامى بلونيّ الأحمر والأصفر. كنتُ أينما أنظر أرى أزهاراً تتمايل على سيقان نحيلة وطويلة في وجه ريح الصيف الدافئة، وأسمعُ الأشجار المُحيطة تُصدر أصواتاً خافتة بأغصانها المنتظمة بنسَقٍ مِثاليّ والمكسوّة بأوراق ذهبيّة.

قال بسرور «تشبه الأجراس». كان مرتع طفولته، وأراني كل نهر صغير، وكل مسقط ماء، وكل بحيرة زارها وهو صبي صغير.

ما أذكى الروائح العطرة واللمسات الدافئة – ذكريات عذبة – تقاسمناها في ذلك الصيف الأول.

حينئذٍ ذهبنا إلى بريست وخلال ليالٍ طويلة من التعانق أخبرني كم أختلف عن أيّة امرأة أخرى عرفها. لقد شعر من خلالي بأنه مُنِحَ فرصة أخرى؛ شعر بأنه أخيراً سوف يشعر بالواقع، بأننا سوف نحظى بعلاقة حب تدوم.

همس لي «لقد لمستِ ما تقتُ إليه ولكن لم أجرؤ على لمسه بنفسي»، واستأنف قائلاً «أنتِ تجعلينني أُحلِّق، نُحلِّق معاً. هذا هو قدرنا»

وهكذا غادر بلده وجاء إليّ.

على مدى سنين طويلة، وقبل أن أقابله، حاولتُ أنْ أكون ما ظننتُ أنَّ الناس يتوقعون مني أنْ أكون، حتى وأنا وحدي. أردتُ أنْ أصرخ وأنا أبتسم، أردتُ أنْ أهرب مبتعدة وأنا قريبة. أردتُ أنْ أصمتْ وأنا أتكلَّم. وعندما أضحك وأرفعُ كأسي لأشرب أنخاب أشخاص غرباء في حفلات الكوكتيل، أكونُ مشحونة بالغضب. قالوا لي إنني رقيقة، وإنهم ينجذبون إلى تناغمي. في عالم الأوهام والنفاق، حيث أمضيتُ ردحاً كبيراً من وقتي، لم يكن هناك حيِّز صغير لأجلي.

ومن ثم قابلته.

أرسل إليّ برقيّة يطلب فيها إجراء حوار معي. ولم أُعطه أي جواب. ثم أرسل إليّ برقية ثانية. وأيضاً لم أعطه ردّاً. ولاحقاً أخبرني بأنه خشي أنْ يكون قد بدأ يفقدني من دون حتى أنْ يُضطرّ إلى لمسي؛ وتساءل ما الخطأ الذي ارتكبه في برقيَّتَيه. ثم تساءل إنْ كنت قد فهمتُ أنه يريدني أنا، وليس إجراء الحوار. كان الحوار مجرد ذريعة وتبرير. اعتقدَ ببساطة أنَّ علينا نحن الاثنين أنْ نتقابل ونكون معاً. وأرسل برقية ثالثة. وهنا أعطيته جواباً ووافقت. وفي تلك اللحظة، أخبرني أنّه كان يعلم بكل ما سيحدث.

في أثناء الحوار أخفيت أنني مختلفة عنه. لم أدعه يعلم أنني ملأتُ أيامي بالبرامج، وأنني عشت حسب جداول وخطط، وأنَّ الالتزامات تمنحني الإحساس بالأمان.

أما هو، فإنَّ العمل كمُحاور كان بداية جنونه – أو هذا ما سيقول لاحقاً. وخِلافاً لكل الاعتبارات، والوقائع، والالتزامات – كانت فترة وجيزة من فقدان العقل – ترك عائلته، وعمله، وبلده.

كان يقول ويُكرِّر القول «هذا في اعتقادي هو الحب»

قام قابيل ذات يوم كأنّه رجل آخر، ببناء منزلٍ على جزيرةٍ بالضبط في الموقع الذي باح لي فيه عن حبّه، وقدَّم لي رمزاً مُشابهاً عن الحب: كوناً بلا ماضٍ، لا يضمّ إلّا غرفة واحدة تتسع فقط لشخصَين.

عرضَ عليّ ذلك الرمز ورحَّبت به – مُعتقدة أنني سوف أعرف الحب من خلال تصرفه.

أخبرني أنه عرفَ فيَّ امرأة تبحث عن علاقة واحدة حقيقيّة، ورأى أنَّ مشاعره نحوي كافية لملء حياته.

لم يعرف إنْ كان هو الذي اختارني، أم أنني أنا التي اخترته، لكنّه رأى أنَّ الأمر يتعلَّق بالاختيار.

ومن ثم، بعد أنْ استعاد وعيه ورصانته، ميَّز الفرق بيننا. لقد انزعج من مكالماتي الهاتفيّة، ومن رسائلي، وأوقاتي المنظّمة بدقّة. ادّعى أنَّ متعة الحب تحولت إلى جائزة يجب أن يفوز بها مني. قال «أنتِ ضحيّة التزاماتك»، وراح يتبعني كالسائر في نومه إلى أنْ نال الضجر منا معاً. هو أرادني، ولكنْ من دون حياتي السابقة والمُنفصلة عنه. ومن ثم اختار الصمت، ولم يعد يشعر بأي رضا، بما أنّه لم يُرِدْ إلّا أنا، وليس ماضيَّ أو حاضري. فقط أنا عبر ارتباطي به.

قال «خذيني»، لكنه لم يرغب إلّا في ذراعيَّ، وابتسامتي، وجسدي، واهتمامي، وحبي. ولم يرغب فيما تبقّى.

قال «استغلّيني» لكنّه كان يعني شيئاً آخر. ولن أدرك أبداً ما هو.

في عالم الحب الصغير الخاص بنا، والمعزول، استدفأت برقّته، على الرغم من أني افتقدتُ اعترافه بكل ما يتعلَّق بي بعيداً عنه.

لقد جاءني في فترةٍ من حياته كان خلالها في حاجة إلى الهرب، حين تاق أخيراً إلى أنْ يتّحد مع شخصٍ آخر.

اعتقدتُ أنَّ هذا ما أردتُ أنا أيضاً، ولكن في الوقت نفسه كنت في طريقي إلى خارج البيئة التي كانت بيئتي على امتداد سنين عديدة.

بما أنّه كان مُستسلماً كل الاستسلام، بلا أيّة تحفظات، ظننت أنّه يُريد حياتي برمّتها.

ومن ثم، من دون أنْ أجرؤ على الإفصاح عمّا توقّعت، راقبته وهو ينسحب.

شعر بالغربة الكاملة عن حياتي.

حينئذٍ لم أفهم.

نحن جالسان في شقّتي في النرويج.

يبدو ضجراً ويُحدِّق إلى اللهب في الموقد. أحاول أنْ أقرأ لكنَّ الكلمات لا تعني لي أي شيء. ويشرب. أتألّم من أجله ومن أجل نفسي. والشفاء يتطلَّب معجزة.

بينما أتساءل إنْ كان ما أشعر حياله هو حب، وأسأله، «أتحبني؟»

يُجيب «نعم»

ثم يرين على كلينا الصمت.

أراقب هذا الرجل الذي يشكلُ جزءاً لا يتجزّأ من الماضي الذي يحاول أنْ يهرب منه. وأتخيّل كل الأحداث التي لابد أنّه أخفاها عني، والوجوه والانفعالات التي يتكوّن منها.

إنّه يضمر ألماً لن أعرفه.

أتذكَّر اليوم الذي أتى فيه، وكيف ضحك وهو يهرع نحوي في المطار: «استغلّيني»

آه، يا قابيل، ماذا حدث لنا؟ كيف تُصدِّق أنَّ في استطاعتي أنْ أكون كل ما تخلّيتَ عنه من أجلي؟

ماذا توقعتُ؟ في البدء ملأني الحبور لأنكَ ادّعيتَ أنَّ وصولك هو هدية حب. كنتُ في حاجة إلى ذلك. ثم أصابني الذعر لأنَّ هناك عالماً حقيقيّاً حولي لا يمكن أنْ يبقى موجوداً كملاذٍ منعزل لعاشقين. كان لديّ العديد من المسؤوليات، وأناس يتّكلون عليّ. كنتُ أمّاً وأردتُ وقتاً أقضيه مع ابنتي. بالنسبة إليّ، المنزل ليس مجرد مكان ننفرد به أنا وهو. لقد أراد قابيل حُلماً، أراد أنْ نهرب معاً.

بالنسبة إليّ كان الأوان قد فات لذلك.

أبكي.

«قابيل، أنا وحيدة»

«أحياناً أخشى أنّكَ تحتاج إليّ كتوكيدٍ على أنّه في استطاعتك أنْ تحبَّ وتكون محبوباً». يمسح عينيّ ويضمني إليه بشدّة. «أحبّك»

«أنت قلتَ لي: استغلّيني»

«أنا قلت لكِ: خُذيني»

«قابيل، لِمَ أنتَ دائماً شديد الغضب مني الآن؟»

يقول بهدوء، «لستُ غاضباً. أنتِ وأنا نعيش بصبرٍ نافد، وبافتقار إلى الفهم. أنت وأنا حالمَان، كلانا نريد أنْ يتحقَّق المستحيل.

«أملي هو أنْ أفقد ماضيَّ، من خلالك. لقد وعدتكِ بألّا أتركِ، إلّا إذا انتابني الشك في قدرتنا على الاتّحاد. ومن دون ماض.

«ولكن *إذا* غادرتُ، فلن أنظر خلفي. سوف أتركِ من دون ندم. لن أحلم بعد الآن، لكني لن أترك خلفي شيئاً أندم عليه»

خيَّم الصمت علينا كلينا.

خوف المرأة:

أستمع إلى قصة رابعة العدويّة، المرأة العربيّة الشهيرة جداً، التي عاشت في العصور الوسطى واعتبرتْها غالبية الناس قديسة؛ ويُقال إنَّ رابعة، «تعادل مئة رجل» وقديسة القرون الوسطى هذه سافرت في رحلة حج إلى مكّة.

رابعة – جميلة العالم العربيّ، زحفت مسافة الطريق كلها على أحد جنبيّ جسمها، هكذا قطعت رابعة مسافة الرحلة كلها واستغرقت سبع سنين.

ولكن حالما مثُلتْ أمام مكّة، أتتها الدورة الشهرية. فبكتْ، شاعرة بالخزي، واعتبرَتْ فيض سائلها علامة مُرسلة من الله، فتخلَّتْ عن غايتها من زيارة البيت الحرام وقررتْ أنْ تعود أدراجها من دون حتى أنْ تشاهد الكعبة السوداء.

أتجوّل في عالمٍ مجهول من الفقر والفاقة والأمل. وأشد ما يصعقني هو صبر الفقير.

على الرغم من أنني طالما عشت بالقرب من الناس الذين أقابلهم الآن، وأعرف حياتهم، فإنني أعيش حياتي من دون أنْ أراهم. وكأنني أُقيم في جزيرة مُسوَّرة.

حسب الإحصاءات، فإنَّ رجلاً جائعاً يمدّ يداً مُجعّدة، عجوزاً ووحيداً، وأصابع قدميه تبرز من حذائه المُمزَّق وعيناه تُحدّقان إلى كل عابر كأنهما تقولان: «ساعدني أرجوك»، هو القنبلة الموقوتة التي ستدمِّرنا كلنا في نهاية المطاف، هو الفقر العصيّ على الوصف الذي يبتلي به أكثر من نصف سكان عالمنا اليوم.

سوف أبقى دائماً مدينة لمنظمة اليونيسف - صندوق الأمم المتحدة لإعانة الأطفال. فقد استُدعيتُ ذات يوم إلى مكتبها الرئيسيّ في نيويورك وطلبت مني أنْ أكون أول امرأة تشغل منصب سفيرة النوايا الحسنة.

فوجئت بذلك. وكانت مهمتي هي أنْ أسافر إلى الدول المتخلّفة لكي أراقب المشاريع التي تمولها منظمة اليونيسف لمصلحة الطفولة، وأتّصل بالعائلات المحرومة وأتعرَّف على ظروف حياتها.

ثم، اعتماداً على ملاحظاتي، وتجاربي، وفهمي، أنْ أجد وسيلة لدعم قضيّة الأطفال واحتياجاتهم.

في رحلتي الأولى لمصلحة اليونيسف، يُقرر قابيل مرافقتي. وأفرح كثيراً

لأننا اتّخذنا معاً هذا القرار، بما أنّه أخبرني ذات مرّة بأنّه لا يشعر بأنّه حيّ إلّا عندما يُسافر.

تبدأ رحلتنا في نيويورك.

في المطار ترفع امرأة عجوز نايها وتومئ بحركة صغيرة إلى نفسها. ويصدر عن آلتها الموسيقيّة لحن حزين، رفيع، ونقف هناك نراقب ركاماً من الملابس الصوفيّة وقدمين مُصابتين بجراح، وعينين زرقاوين تُحدقان إلى أسرار لا نعرف كنهها.

يقول قابيل «كما ترين، هناك فقراء في كل مكان. لِمَ علينا أنْ نقطع كل المسافة حتى قارة آسيا لكي نفتش عنهم؟ إنَّ مشكلتكِ هي أنكِ دائماً تشعرين بأنَّ عليك أنْ تسبقي الأحداث وتحثّي على إنجاز الأعمال. ولا تنتظرين أبداً. لستِ مُضطرة إلى مُرافقة اليونيسف حالما يطلبون منك ذلك. يجب أنْ تفكري في الأمر قليلاً. كان يمكن أنْ نضع خططاً ونذهب وحدنا، لاحقاً. ونشاهد ما نريد *نحن* أنْ نشاهد. ونقوم بخياراتنا الخاصّة»

لم يكن لديّ جواب على هذا، مع علمي أنني لا أستطيع أنْ أجلس وأراقب العالم على طريقة قابيل، ويفوت الأوان، وأمرَض.

كنتُ آمل في أنْ نعثر على شيءٍ ما معاً، والآن ونحن في طريقنا إلى الهند وأصبحنا في المطار أخشى أننا أصبحنا متباعدين أكثر مما كنا عندما وافقنا على المشاركة في الرحلة. مكتبة سُر مَن قرأ

تُقلِع الطائرة وتندفع بين السحب الشبيهة بالقطن نحو ضوء مُبهِر غمرني بالكامل. كم أحبّ تلك الكتل من الوسائد المُضيئة – لكي أرتاح عليها عالياً في السماء. وأتساءل كيف كان يمكن للناس في الماضي أنْ يشعروا لو أُتيح لهم أنْ يمروا بمثل هذه التجربة. هل كان جول فيرن، الذي قام برحلات طويلة جداً في البحر والبرّ – سيرغب في الجلوس هناك في الأعالي الآن؟ مربوطاً بحزام المقعد، ولكن مع قوة جاذبيّة معدومة. أو مايكل أنجلو؟ الذي كان قد دمَّر أصلاً كل الحدود التي وضعها الإنسان، وكانت حياته بأكملها احتفاءً بقُدرات الروح، هل كانت أسرار رحلته الداخليّة ستتمرّد على صوت وسرعة وحدود رحلتنا الجويّة؟

في الأعماق السحيقة يمتد كبل عبر المحيط الأطلسي، حاملاً رسائل من رجلٍ إلى آخر عبر أعماق المياه، خلال المحيط الذي لا يُشير إلى أي أثر له، ولم تسجّل أيٌّ من رحلات الإنسان التي لا حصر لها من قارة إلى قارة وجوده على سطحها.

والفضاء الذي نطير خلاله هذه الليلة لن يقتفي أثر عاشقين عابرَين يسعيان إلى بلوغ هدفهما.

في كل يوم يموت أربعون ألف طفل جرّاء حرمانهم من الطعام، والماء، والدواء. وهذا يعني أنَّ ميتة تقع كل ثانيتين،

الآن

والآن

والآن

و...

مكتبة
t.me/soramnqraa

نادراً ما يستفيد الفقراء من معجزات التقدُّم.

نحن الذين نستفيد نستطيع أنْ ننتظر، أما الأطفال فلا يستطيعون:

إنهم يُمضون ليالي بلا سقف يحميهم، وأياماً بلا طعام، وأسابيع في بؤس، وأشهراً من المعاناة النفسيّة – وإذا نجوا بعد ذلك كله، فإنهم يحملون آثاره حتى آخر حياتهم.

وكذلك يحدث معنا نحن.

قد لا نعي أننا نحمل تلك الندبة، لكنني أراها. أراها على نفسي، أراها عندما أمشي في شوارع نيويورك أو أوسلو.

أنا لم أكنْ قط بريئة. لا يمكن أنْ يكون الافتقار إلى المعرفة ذريعتي للتجاهل. أنا أقرأ وأستمع إلى المذياع وأشاهد التلفزيون.

كنتُ أعلم. لكنني لم *أُرد* أنْ أعلم.

كانت الإحصاءات أمامي، كما هي في هذه الرحلة. وحتى لو بقيَتْ

مُبهمة، فإنَّ وجوه الأحياء والموتى الذين أقابلهم يشكّلون أمامي صورةَ عائلةِ الإنسان. وجمال الصورة يكمن في خيوط الثقة التي تنسجها.

الأحياء. هو رجل عجوز. كان ذات يوم جنديّاً، وهو الآن يعمل في مجال الصحة في قريته. قادني بحذر على طول الممشى الضيق نحو تجمّع من الأكواخ الصغيرة. وبينما إحدى يديه تستقر على كتفي، كانت ذراعه الأخرى تُحيط بخصري كأنها تدعمني، ذراع تشدّ عِظامُها النحيلة وأوتارها الطويلة بقوة البشرةِ الشبيهة بالجلد المدبوغ، وكان الجلد الذي جعلته أشعة الشمس والغبار الذي تُثيره الرياح قاسياً، يحكي حكاية عصر وحياة.

عرّفني إلى كل العائلات المسؤول عنها. التعليم الذي تلقّاه مؤخراً عبر منظمة اليونيسف قد مكّنه، بوصفه «طبيباً حافياً» من تشخيص الأمراض الشائعة في قريته. وداخل الحقيبة المتهرئة التي يحملها كانت أدوية وأدوات طبيّة أساسيّة.

بدا فخوراً بنفسه وهو جالس مع أحد المرضى، ورقيقاً في تعامله مع أي جرح.

خلال فترة بعد الظهيرة التي أمضيناها معاً، لاحظتُ الاحترام الذي يعامله به القرويون الذين انتخبوا أحد أكبر أعضائهم سناً لكي يتلقى تعليمه بالنيابة عنهم جميعاً.

في بانغلادش، ثمة مجتمع صغير يحتفل.

الرجال والنساء والأطفال يرقصون حول ماسورة مياه متلألئة، يثبون حولها على شكل دائرة، أيديهم ممسكة بأيدي بعض، تكتنفهم تلال نضرة ودافئة، وتستعر أشعة الشمس فوق الرؤوس، مُضيفة لوناً على حركاتهم. أحدهم يرتدي ملابس خضراء اللون، وآخر يرتدي قماشاً فضفاضاً أحمر اللون – أمام عينيه يدور مشكالٌ من الألوان.

كان على النساء هنا دائماً أنْ يحملن براميل من الماء ويقطعن أميالاً من نبع مُلوَّث. والآن ها هنَّ يقفن وسط موقع مضخة مياه.

الرجل الحيويّ الذي ركَّبَ المضخّة، المهتز كوتر القوس بعد إطلاق سهم، يوشك أنْ يعرِض أداته الجديدة. ومن خلال التدريب الذي تلقّاه من منظمة اليونيسف، أصبحَ قادراً على الانتقال من قرية إلى قرية، وتوزيع المياه على الناس. ويُساعدني على ارتقاء سلّم قديم ويطلب مني أنْ أضع يدي على فوهة الصنبور.

يضحك «تحسّسيه، تحسّسيه. المياه آتية!»

من خلال بشرتي أشعر بدمدمة وضغط هواء مندفع ودفق الماء القوي من عمق الأرض. المعجزة تحدث!

هنا يمتد عدد غفير من الأيدي نحو الصنبور، وفجأة يُبقبق الماء خارجاً ومسفوحاً فوق الأكواب والمقالي الممتدة نحوه باستعداد.

عندما أصرخ بسرور، يُكشّر حفّار البئر وألمح كفّ يده، السمراء والجافة، تومئ أمامي، فأرى عليها علامة كبيرة زرقاء. كان عمله اليوميّ في غرس المواسير في التربة الجافة حتى تصل إلى حيث تتدفق المياه النظيفة، قد جعل منه صورة عن الأمل.

وفي أثناء مكوثنا في تلك القرية تُمسِك فتاة في التاسعة من العمر يدي. فتاة صغيرة ظريفة تشبه عفريتة صغيرة لها شعر أسود طويل يتطاير حول وجهها وكتفيها. تضحك، بصوت مرتفع ومتلهّف، وهي تجرّني معها، وتقول لي، «أريد أنْ أُريك كل ما هو رائع في حياتي. أريد أنْ أُريك منزلي وعائلتي وكل ما ينمو»

إنها تُقيم في منزل من الطين. أحني رأسي وأدخل من الفتحة. في الداخل، الظلام شامل ولا أتمكن من تمييز الأشخاص الذين يتقاسمون معها هذا المنزل. ولكن من خلال غمغماتهم وتلامسهم وأنفاسهم القريبة مني، أشعر بالدفء الذي يكتنفني.

الاحتضار. سيدة تتبعني، حاملة طفلاً رضيعاً بين ذراعيها. تشدّ كُمّي وتهمس، «خذي طفلي، أرجوك. لا أستطيع أنْ أوفّر له أي طعام»

عيناها بوابتان إلى اليأس.

الجو حارّ، والوقت منتصف فترة بعد الظهيرة في قرية فقيرة جداً في الهند. الهواء راكد في هذا المكان الهادئ. والناس يبدون منعزلين بصورة مأساويّة، كأنَّ العالم لم يكتشف وجودهم بعد، يجوعون حتى الموت وسط الوفرة. تنهار امرأة وسط الحرّ. حامل في شهرها الثامن، جسمها الواهن يتهاوى عندما ينتابها طلق قبل الأوان. ثم تنجب ابناً واهناً وزنه دون المعقول ويموت بعدها ببضع ساعات بسبب النزيف المُميت. لا تتوفر العقاقير أو الأدوية لتريحها في لحظاتها الأخيرة. كان طفلها لا يزال حيّاً عندما مررنا به.

المنبوذ. في الخارج دار للأيتام، وثمة فتاة في الثانية عشرة تنتظر، تحمل حزمة تضم متعلقاتها. «هل أستطيع أنْ أبقى؟ أنا أيضاً أريد أنْ أتعلّم القراءة». كانت تقف على مؤخرتها، لأنَّ قطاراً كان قد تسبّب في بتر ساقيها.

بجوارها، بالقرب من البوابة، هناك مِزوَد تستطيع الأمهات أنْ يتركن أطفالهن فيه، ثم يقرعن الجرس، ويختفين. وفي حال تصرفن بلا تدبّر ثم ندمن، تنتظر الراهبات نصف ساعة قبل أنْ يخرجن ويجمعن الواصلين الجُدُد.

الرجال والنساء العجائز المنبوذون أيضاً يُقبلون. يُرفع طفل رضيع يبكي من المزود ويُجلَب إلى سيدة مذعورة في سبعينيات عمرها. أراقب ابتسامتين بلا أسنان عندما يوضَع الطفل في حِجرها.

عندما أتمشّى في الحديقة، أرى صبيّاً في السادسة عشرة نائماً على العشب. يُقال لي إنه نادراً ما يستيقظ، وعندما يفعل، لا يحدث فرق. لا يُبدي أيّة حركة، ما عدا أنَّ عينيه تُفتحان ثم تُغلقان. كأنَّ الحياة غادرت جسده، وعلى الرغم من أنني أرى من خلال شفتيه اهتزاز صوت بطيء فإنّه لا يخرج من بينهما أبداً.

الأطفال الأصغر سناً، النحيلون بصورة لا تُحتَمَل، يتركون لديّ أثراً عميقاً. صراخهم الرفيع، المزعج يتوقف عندما يرفعهم أحدهم ويحملهم. وجوه شديدة الصدق، وأنوف صغيرة، وأفواه رقيقة – رؤوس ترتاح على صدري. ذكرى سيدة عذبة في ماكاو.

حيوات صغيرة ترتجف مع خيط رفيع من الأمل ممدود بفعل النجاة من الموت.

عندما أغادر دار الأيتام، يكون ثوبي رطباً من الأطفال الرضّع.

***

نطير فوق سريلانكا.

يقول قابيل «يعتقد الناس هنا أنَّ هذا قَدَر. ومهما اشتدَّتْ معاناتهم يعتقدون أنَّ ذلك من أعمال القَدَر، وينبغي ألّا نعمل على تغيير هذا الاعتقاد»

لا أستطيع أنْ أتقبَّل هذا. وأنا وقابيل، وأصدقاؤنا كلهم، كلنا، نتفاخر، بدرجة معيَّنة، بقدرتنا على التحكم بأقدارنا. فكيف يمكن للفقير إذن أنْ تُتاح له فرصة، بما أنَّه في الأساس لا يستطيع السيطرة على قدره؟ فلماذا تمنحنا العناية الإلهيّة الكثير ولا تُعطي الشعب هنا أي شيء؟

من الصعب أنْ أُعبِّر بالكلمات لقابيل عمّا أشعر به في أيام السَفَر هذه في أرض الحرمان ؛ عن عيشي الأسئلة التي أنا مُضطرة إلى إثارتها حول أمور كثيرة كنتُ أجدها هامّة.

إنَّ المرأة التي تريد أنْ تتنازل عن طفلها لكي تنقذه من الحرمان هي ***أنا***. فإذا لم أعترف بها خلال الفترة القصيرة التي نتقاسمها على سطح الأرض، كيف يمكنني أنْ أتوقَّع الاعتراف بنفسي؟

أنا أفهمُ أنَّ كونَ الناس يموتون بالملايين هي مجرد عمليّة إحصاء. إنَّ كل شخص يموت بمفرده، بسبب ورطته الخاصة، كما يعيش.

إنني أفتّش عن الكلمات المناسبة لأصِف ما أكتشف والشيء الذي ما زلتُ أبحث عنه. أهو الحب أم الإيمان؟ أم كلاهما؟

أم ماذا؟ لا أعلم...

يشدّ قابيل على ذراعي بلهفة: هناك!

يقول، وهو يميل نحو النافذة، «انظري إلى الخارج! إنَّ ما نشاهد من هذا العلو سوف يجعلنا أكثر حِكمة مما تفعله زياراتنا كلها إلى مجتمعات مختلفة. أريد منك أنْ تشعري *بروح* تلك البلدان. حينئذٍ فقط سوف تفهمين. انظري هناك!»

«لكني أريد منكَ أنْ تشعر *بالناس*»

نطير فوق أشجار جوز الهند وحقول الأرز والبحيرات الاصطناعية ومزارع الشاي. يُشير قابيل إلى الخارج باتجاه مساقط المياه والأنهار والوديان. كل شيء نضر وناضج بصورة رائعة. إنه سعيد كما رأيته في تلك الرحلة.

السماء زرقاء وصافية. الوقت يقترب من الغروب. وتحتنا، يتغير المشهد العام من النضج إلى العقم، إلى الأرض المحروقة، من الثراء إلى الفقر. يقول «يبدو أنّه يرتدّ ثم يتدفق كحركة جزر ومدّ سريّة في الطبيعة»

تنحني طائرتنا الصغيرة أمام ريح المساء، وبينما نطير فوق تلال دافئة والحيوانات التي ترعى، يتخيّل قابيل فجأة أنّه سوف يتحوّل إلى طائر، جناحاه ممدودان، وينساب بمنحنيات عظيمة.

يهمس «أتمنى لو أنَّ في استطاعة سكّان سريلانكا كلهم أنْ يكونوا معنا الآن ويروا كم أنَّ بلدهم جميل»

ويصمت.

كيف يمكن لنا أنا وقابيل أنْ نشعر في قلوبنا بكل ذلك التألُّم من أجل جمال العالم؟ كيف نفعل ذلك، في حين أنَّ لأولئك الأطفال الصغار قلوباً تتوجّع من فرط البؤس؟

الأحياء. ثمة طفل صغير قذر على المعديّة، يُحاول أنْ يتظاهر بأنّه يُزيل الغبار عن سيارتنا. تمتد يدٌ. تنظر عينان عجوزتان إلينا بلا مبالاة.

نضع بعض النقود، بعض القطع النقديّة في راحة يد الطفل - لا نعرف حتى قيمتها. فينظر إلى أسفل ثم إلى أعلى ثم إلى أسفل. ثم يضحك من وقع المفاجأة ويفرح كأنما لنفسه. لكنه لا يفرّ مبتعداً كما يفعل الآخرون.

في سريلانكا يقوم صبي صغير بغسل سيارتنا ويمسحها وينهمك في عمله؛ حتى الدواليب يُنظفها. صبي ظريف، ضاحك، ويقوم بدورة جديدة من التنظيف، وعندما تتوقف عبّارتنا يرمقنا بوجهه المُشرق.

يركض أمام سيارتنا بساقين نحيلتين وبقدمين حافيتين كأنما ليقودنا إلى خارج الزورق. قفزاته جديرة بأنْ تجعل من أي راقص يشعر بالفخر.

خرجنا بالسيارة من العبّارة ولوّحنا له مودعين.

وها هو ذا - في وقت ومكان منسيين يتقاسم نقوده مع صبي صغير آخر، ولا يُتاح له الوقت لكي يلوِّح لنا مودّعاً.

امرأة في منتصف العمر في كلكوتا تعيش بين حاويات القمامة، لم تعثر على مواد تبني منها مأوى، كما قالت. عند ناصية ذلك الشارع لا توجد خصوصيّة، لكنّها تدّعي أنَّ هذا لا يهمها. إنها حتماً أصغر سناً بكثير مما تبدو عليه، بما أنَّ أطفالها الأربعة الذين يلعبون على بقعة الأرض القذرة والرطبة التي أمامها يبدون صِغاراً كلهم.

«ألا تزعجها الرائحة؟»

لم تعُد تشعر بها. لحُسن الحظ المكان هنا جيد للعثور على ما يصلح للأكل. وغالباً ما تُفاجأ بما يرميه الناس.

رائحة مخلفات البشر المنتشرة حول أفراد تلك العائلة فظيعة. وثمة كلب يشم سيقاننا بلهفة، ثم ينبح وهو يبتعد كأنه اكتشف شيئاً مُريباً لا يستحق أنْ يوليه اهتماماً.

كانت المرأة قد جمعت أربع قطع من الخشب، احتفظت بها بعناية، آملة بالعثور على شيءٍ تطبخه في أثناء النهار. وعندما بدأتْ تُمطِر، تدعوني للاحتماء تحت وشاحها. ترفعه بعناية فوق رأسينا بينما نجلس في صمت ووسط جو ودّي في المجرور.

«الآن هناك عِظام طفل تتشكَّل،
ودمه يُصنع، وحواسّه تُكوَّن.
لا نستطيع أنْ نُجيبه بكلمة «غداً» لأنَّ اسمه هو «اليوم».

• **غابرييل ميسترال**

جُلِبَتْ فتاة صغيرة من الشارع إلى دار الأيتام، بطنها منفوخة بفعل سوء التغذية، وشعرها أسود خفيف يكاد لا يغطي فروة رأسها. وأصابعها الصغيرة الهشّة تستكشف بلهفة طيّات ثوبي، وطول شعري.

يبدو أنها تحبّ قلادتي وتنظر إليّ وهي تضربها.

أمسك أصابعها وفي الحال تتشابك مع أصابعي. وألمس الخاتم ذا حجر الزجاج الأحمر الذي تضعه في إحدى أصابعها.

فجأة تخلعه وتعطيه لي مع ابتسامة.

بعد مرور شهر على ذلك أُخبر هذه الحكاية لمجموعة من الشبان في واشنطن. وبعد ذلك تُعطيني فتاة في الثالثة عشرة خاتماً جميلاً يتدلى منه قلب من الفضّة، وتطلب مني أنْ أجد بنتاً محرومة وأعطيها إياه وأقول لها إنه هدية من صديقة.

ثم أحكي الحكايتين أمام اجتماع دينيّ في نيويورك. واستلهاماً من تينك الفتاتين، نظّموا حملة أعطوا فيها كل مُشارك خاتماً صغيراً. واحتفظوا بالخاتم مدة شهر ومن ثم سلّموه لشخص آخر، وطلبوا تذكُّر الفتاتين الصغيرتين، وإرسال نقود لتمويل صندوق إعانة خاصّ من أجل الأطفال الفقراء، وأيضاً نشر الحكاية.

بهذه الطريقة، وفي غضون بضعة أشهر، استطاعتْ فتاة صغيرة في دار للأيتام في آسيا أنْ تجمع مبلغ إعانة يزيد عن 25000 دولار من أجل أطفال آخرين.

قابيل وأنا. هذا هو فصل الشتاء الثاني الذي نقضيه معاً.

في الخارج الريح تصفّر، وترمي النوافذ بمطر متجمد قاس، كشياطين صغيرة تربت على جدراننا تبغي الدخول. الليل يكتنفنا بظلام شديد البرودة.

ما زلنا عاشقين، لكنَّ النظر إلينا يُشبه اثنين عاجزين في الغالب عن التواصُل.

عندما ذهبنا إلى آسيا، أردتُ من قابيل أنْ يكتب عن ذلك. فقال لي: «إنني أحاول أنْ أفهم الفضاء المُحيط بنا، وأعتقد أنَّ حياتي من الصِغَر والقِصَر بحيث لا يمكن البحث عنها في مكان قصيّ كالهند. الشيء الوحيد الذي أُحسِن عمله هو أنْ أقرأ – »

استمرَّ صمتُه أياماً عديدة، بل توقف عن العمل على كتابه. وكلما نظرتُ إليه، راغبة في هزِّه، على الرغم من أنّي لا أعلم كيف أُعبّر عن مشاعري. أتذكَّر فقرة من رواية «*نساء صغيرات*»: «إنني غاضبة في كل يوم من أيام حياتي، يا جو؛ لكنني تعلَّمتُ ألّا أُبيِّن ذلك، وما زلتُ آمل في تعلُّم ألّا أشعر به، على الرغم من أنَّ هذا قد يستغرق مني أربعين عاماً أخرى»

يقول: «إنني لا أشعر بالأمان إلّا وأنا أقرأ. وعندما أقرأ أعرف خريطة كل الأمزجة، وكل الوجوه، وكل الأحداث، ولا أحتاج إلى الكلام»

إنّه يسعى وراء الواقع في كتبه كما كنتُ أسعى إلى التواصُل في تمثيلي.

نحن نعيش معاً في وقتٍ من حياتنا أعجز فيه أنا، التي تحاول أنْ تغادر ذلك العالم، عن فهمه هو، الساعي إلى العثور على ملجأ في العالم أو في الكلمات المكتوبة.

أنظرُ إلى عنقه المحني، وإلى يديه المتشابكتين بارتباكٍ في حجره، وفجأة تغمرني صورة عزلته. وا أسفاه، يا حبيبي، لأنَّ الذين قابلناهم سوف يتذكرون صمتك لكنهم لن يعرفوك أبداً، ولن تعرفهم.

ينهض قابيل. وببطء وبثمالة يتوقف عند كل مصباح من المصابيح العديدة ويُضيئه. يتوقف قليلاً بجوار النافذة ويطلّ على ليل الشتاء. الريح الشماليّة تغلّف منزلنا كمعتوه مهووس. وبما أني في الداخل يجب أنْ أشعر بالدفء وبالأمان. لكني لا أشعر بذلك. هناك شيء في ظهره الذي يواجهني، كأنه يصرخ وينقل لي رسالة لا أفهمها.

بعد قليل، يعود إلى حيث كان جالساً. ويسود الصمت فترة طويلة.

«كلِّمني أرجوك»

«عمَّ أكلّمكِ؟ لِمَ يجب أنْ تتكلّمي دائماً؟»

«هل نذهب لننام إذن؟»

«لماذا دائماً تطرحين أسئلة؟ لِمَ تجلسين دائماً هنا معي، وكلما ساد قدرٌ من الصمت تطرحين سؤالاً؟»

فترة سكوت طويلة. أرغب في التواصل معه. عندما نكون متقاربين ولا نستعين بالكلام، نبقى قادرين على قهر المسافات بيننا.

«أريد أنْ أحبّك، يا قابيل»

«لا أريد أنْ أتكلَّم عن الحب. فلنتكلَّم عن الهدر. أنتِ تهدرين حياتك. وحياتي. تهدرين حياتينا.»

«الوقت متأخّر جداً. أنا مُتعبة»

«الملكة مُتعبة. وتأمرني بالإيواء إلى السرير. الملكة نعسانة. وعلينا جميعاً أنْ نرضخ لرغباتها»

لم يعد في استطاعتي أنْ أمكث في الغرفة. أنا عاجزة وخائفة. ما أفظع أنْ أكون عاجزة عن الاعتماد عليه.

كل رسالة يبعثها كلّ منا إلى الآخر تبدو الآن أنها تعبِّر عن اليأس.

أُطفئ الشموع التي زيَّنتُ بها أمسيتنا في وقتٍ مُبكِّر. ثم أعدُّ لنفسي مشروباً قويّاً. يجلس. أقف قليلاً وأتأمّله ومن ثم يتوجب عليّ أنْ أغادر. أصرخ بلا كلام «انظرْ إليّ! المسني!»

من الأسهل التعامُل مع الطقس الختامي. ألجأ إلى الحمّام، وأنظِّف أسناني، وأغسل وجهي، وأُدير مفتاح جرس الإنذار، وأُثبِّت قفل الأمان في الباب، وختاماً أنزع مقبس الهاتف. كنتُ متعودة على وضع جهاز الهاتف الصغير داخل البرّاد وأتركه هناك لكي يرنّ بين ثمار الخيار والبندورة. كنتُ أفعل هذا قبل ظهور قابيل. وقد وجد ذلك تصرّفاً غريباً، فتخلّيت عن فعله.

فجأة يقف في ممر الباب. ومن جديد تغمرني صورته بالحنان. إنّه يشعر بوحشة شديدة، وليس لديه غيري يواسيه.

لا أفعل أيّ شيء. ألزم الصمت. وبعد مرور فترة سكوت طويلة يقول «أنا أتألَّم»

أضمّه بين ذراعيّ. وأجلس معه على السرير. أواسيه كأنّه طفل. وأهزّه بين ذراعيّ.

يقول من جديد «أنا أتألَّم»، ويتنهّد ويُحدِّق فوق رأسي إلى السقف، بقعته المُفضّلة لينظر إليها وهو يتحدث معي.

لا أعرف بما أشعر. ليس الآن. أعرف فقط أنه في حاجة إليّ.

يتنهّد من جديد – هذه المرَّة، كأنّه رجل عجوز. ثم يقول للسقف، «أتعلَمين، لقد أردتُ أنْ أضعَ حدّاً للعالم، أنْ أفكِّر في شيء واحد فقط وحتى النهاية. فيك». أبتسم، يبدو كلاماً جميلاً جداً – كل أحلامي هي أنْ تدوم علاقتنا *هذه* المرّة، وأنْ أجد الراحة في الرجل الذي أحبّ.

أحياناً أحتاج إلى جزيرتنا المنعزلة كما يحتاجها هو.

«آه، قابيل، يجب أنْ نعمل من أجل دعم علاقتنا. من أجلك وأجلي»

يلتفت نحوي، ويبتسم برقّة ويربت على ذقني.

«أنا لا أؤمن بالعمل من أجل الحب، بل أؤمن بالحب.»

الجزء الثاني
خَيَارات

أحاديث. الموقع: أوسلو، النرويج. لقطة عريضة - آلة التصوير لا تتحرك.

(هي وهو انتهيا من تناول وجبة الإفطار)

هو: كم مرَّة حتى الآن تركتني لكي تسافري؟

هي: لا أعلم. هل ستكون موجوداً عندما أعود إلى هنا؟

هو: ربما.

هي: عندما تقول ***ربما*** أشعر كأنَّ منزلي سجن. أخبرني ماذا ستفعل. أخبرني كيف ستقضي أيامك. أخبرني إذا كنتَ ستعود إلى بلدك. أرجوك - لا تقُل ***ربما*** بعد الآن.

هو: بلّغي تحياتي إلى كل الناس في إثيوبيا وأخبريهم بأنني أقف إلى جانبهم لأنهم يُعانون. أخبريهم أيضاً إنني خذلتُ قضيتهم وأنني لن أعود إلى هناك.

هي: سوف أنقل رسالتك إليهم.

هو: أخيراً، أخبريهم بأنك تعرفين أناساً يعتبرون الجغرافيا مسألة فلسفيّة. سوف يفهمون هذا لأنَّ الجغرافيا بالنسبة إليهم أيضاً مسألة فلسفيّة. سوف يكون هناك جوع دائماً.

هي: ألا تستطيع أنْ تفكّر في أمر آخر؟

هو: اسأليهم عن نفع الحب. اسأليهم عن نفع الحياة. وعندما نجتمع من جديد، ستخبرينني عن إجاباتهم وسوف أتلهّف لسماعها.

هي: أهذا كل شيء؟

هو: هذا كل شيء.

هي: هذا كل شيء.

(قطع)

في أحد أيام شهر كانون الأول في أثناء الحرب الحاليّة في إثيوبيا منحت وزارة الدفاع منظّمة اليونيسف خدمات طائرة هيليكوبتر. طائرة روسيّة قديمة وصدئة وينتابني الخوف بينما أطير على متنها لأنَّ خزانات الوقود موجودة في الخارج وتحتنا في صحراء أوغادن هناك رجال عصابات قد يستهدفوننا.

غايتنا هي بلدة صغيرة. فقد أبلغني وزير لجنة الإنقاذ الإثيوبيّة، المرافق لي، أنَّها قد «حُرِّرَتْ» من الاحتلال الصوماليّ قبل أسبوعين فقط. قلت له «أنت أول إثيوبيّ تطأ قدمه تلك الأرض وتتفحَّص الوضع»

أقفُ بجوار طائرة الهيليكوبتر لا أعلم بما أُعلِّق على أطلال حياةٍ شهدتها من قبل. نظرتُ إلى بلدة مُدمَّرة أخبروني أنها كانت جميلة ذات يوم. شاهدت أناساً صنعوا منازل من بقايا ملابسهم.

أكواخ القماش تبدو صغيرة، حتى على طفل صغير، على الرغم من أنّه في بعضها حُشِرَ أكثر من عشرة أشخاص وأقلّ حركة داخلها يجب أنْ تتم بالتناسق مع كل الآخرين، نائمين كانوا أم يقظين.

أعلم أنَّ القوات العابرة قتلت جِمالهم وماشيتهم وأكلتها.

قال الوزير «أتعلمين أنَّ في استطاعة الروس والأميركيين معاً أنْ يشاهدونا عبر أقمار تجسسهم الاصطناعية، ويستطيعون أنْ يلتقطوا صوراً مُفصّلة لأيّة منطقة يشاؤون، بل أنْ يُركّزوا على كتفيات قادة العدو؟».

لم أكنْ أعلم.

إنْ كانوا يحومون فوق رؤوسنا الآن فسوف يرون مجموعة صغيرة من الناس يجتازون البلدة التي دام فيها القتال يومين.

سمعت حكايات عن رجال ونساء وأطفال قُتِلوا. فهل رصد القمر الاصطناعي الموتى المتروكين على الأرض بعد أنْ تبدَّد الدخان وخمد انفجار القنابل اليدويّة والنيران المستعرة؟

لديّ صورة لرجلٍ مُلقى والبندقيّة لا تزال في وضعيّة التصويب. فهل كان يخاف أنْ يقتِل بقدر خوفه من أنْ يُقتَل؟

نمشي بين الركام. ويتبعنا رجل عجوز شبه عار. «لِمَ لا يتوفّر الطعام؟ لِمَ أتيتم لرؤيتنا من دون أنْ تجلبوا طعاماً؟»

عندما نخبره بأنَّ الحصص المُخصَّصة لهذه المنطقة قليلة جداً وتكاد لا تكفي الأطفال الناجين، يقول «لكني جائع، أيضاً. وأتألَّم!»

أرغب في إخباره بشيءٍ مُفرِح، وأشير بإعجاب إلى القبعة الصوفيّة الصغيرة ذات الألوان المتعدِّدة التي يعتمرها. فينزعها بغضب عن رأسه، ويحشرها داخل فمه ويصرخ «أتعتقدين أنَّ في استطاعتي أنْ آكلها؟»

ترفع امرأة طفلها نحوي.

«كنتُ أعيش كملكة. كان لدي زوج والعديد من الأطفال. كانت لدي حديقة أزرعها خضروات. ثم نشبت الحرب. ولم يتبقَّ لديّ غير هذا الطفل. انظري إلى شَعره – إنه يسقط. انظري إلى عينيه – لقد أُصيبتا بالعمى. أرجوكِ أخبري النساء في بلدك عني. أرجوك لا تنسيني»

يقول الوزير وهو يمشي معي بين أنقاض البلدة المُحرَّرة في صحراء أوغادن:

«في السابق، لم تنشب أيّة حرب بين الصومال وإثيوبيا، ولا كان لدينا لاجئون. كانت لدينا حدود مفتوحة بين البلدين. كان شعبانا من البدو. وعندما كان العشب يُصبح نضراً في الصومال، يذهبون إلى هناك، وعندما يُصبح العشب نضراً في إثيوبيا يأتون إلى هنا. وحريّة التنقّل هذه كانت منذ زمن سحيق بين البدو»

لاحقاً يُخبرنا المسؤولون في الحكومة الصوماليّة الشيء نفسه حرفيّاً تقريباً: «إنَّ هؤلاء الناس لا ذنب لهم. إنهم مجرد ضحايا الظروف. ولا ينبغي أنْ ترتبط المعونات بأيّة حكومة أو أيّة حدود معيَّنة بل بالناس المحتاجين»

نمرّ بسيدة طاعنة في السن تحمل في حجرها كميّة صغيرة من الجوز الجافّ. أجلس بجوارها وأراقبها تعطي ممّا لديها لصبي صغير. ثم ترفع نظرها إليّ، ومن دون أنْ تنطق بأيّة كلمة تقشِّر جوزة وتضعها في فمي.

إنها في مثل سني تقريباً، شعرها طويل ولامع، تتدثّر بوشاح جميل مُخطَّط باللونين الأحمر والأبيض. بشرتها أشبه بالجلد المدبوغ وعيناها برّاقتان؛ ولا تطرفان أبداً. تسمع ضجيج طائرة هيليكوبتر وتعتقد أنها تجلب مؤناً – لا تُصدِّق أننا أتينا بأيادٍ فارغة. وأخيراً تجلس وتقول إنها قرّرتْ أنْ تمكث هنا إلى أنْ تجلب طائرة هيليكوبتر أخرى الطعام.

«هل تعلم أنَّ الأمر قد يستغرق أياماً طوالاً؟»

«كلا، لا تعلم. سوف تجلس وتنتظر. ومن ثم سوف تستسلم، كالعديد من الآخرين. وحتى ذلك الحين، سوف يسمع آلاف من الناس الآخرين إشاعات عن زيارتنا وسوف يأتون إلى هنا آملين في أنْ يكون في الأمر شيء يؤكل».

«كم مرّة تستعينون بطائرة الهيليكوبتر لجلب مُراقبين بدل الطعام؟»

«ليس كثيراً. وعندما نفعل ذلك، يتجول المراقبون من بلدانٍ أخرى ويُعبّرون عن تعاطفهم. إنهم لطفاء، لكن نادراً ما يعودون من جديد. ونحن لا نستطيع أنْ نستسلم. يجب أنْ نؤمن بأنَّ العالم يتلقّى الرسالة حول معاناة شعبنا»

نوشك أنْ نغادر، وتهرع المرأة إلينا، وتنظر إليّ مباشرة وتقول بفخامة شديدة: «أنا لا أعرف ماذا *تمتلك* النساء الأخريات. لذلك ربما هنّ لا يعلمن

ماذا **ينقصني**. أخبريهم بأني لا أملك إلّا هذا الوشاح، فقد يمددنَ أيدي المُساعدة. وإلّا فسأموت موتاً بطيئاً. يجب أنْ تخبريهن بهذا!»

الوعود لا تنقذ أبداً حياة إنسانيّة يائسة. ولكن إذا أصغى أحدهم، فقد يُخفِّف ذلك من وطأة اليأس قليلاً.

بما أنَّ المعاناة لا تمنح ضحاياها أيّة حقوق فنحن المشاهدين مسؤولون عن استرجاع حقوقهم الضائعة.

إذا لم تصل المعونة إلّا بعد أنْ يرحل الناس جميعاً، بعد أنْ تمحو الرمال الآثار القليلة التي تُثبتْ أنّه كان يعيش أناسٌ هنا، فمن واجبي أنْ أقول: كان هنا رجل، لكنّه رحل لأنني خذلته.

أستمع إلى قصة الجَمَل، الجَمَل الذي يعيش في القرن الإفريقيّ. عندما ينتقل البدو من مكان إلى آخر، يضعون ممتلكاتهم كلها - أثاثاتهم، وبضائعهم - على ظهر الجَمل.

يُحمّلون الحشيّات التي يُشكلون منها أسقف أكواخهم، والأغصان التي يبنون منها أكواخهم، وأوعية الطعام، وبرطمانات المياه، والحليب، والطفل الصغير وصِغار الجِمال، وأحياناً كبار السن، والمرضى.

عندما يقترب المرء من جمل، إذا لم يفعل ذلك ببطء، أو إذا أصدرت سيارته الجيب ضجيجاً، فإنَّ الجَمَل يفقد السيطرة على نفسه ويندفع راكضاً ويبتعد من دون توقف. ويستحيل إيقافه. حتى وإنْ ناداه صاحبه باسمه. وما يحدث هو أنّه عندما يركض، تبدأ الأغراض المُحمَّلة على ظهره بالسقوط واحداً إثر آخر: الماء، وأغصان الشجر، والحشيّات، والأطفال. يسقط كل شيء عن ظهره - صِغار الجِمال، والعجائز، والمرضى.

أمر خطير أنْ يفر الجَمَل هارباً بفعل الخوف.

الجمَل غبر قابل للترويض بشكلٍ كامل، وهو ليس شديد الذكاء. إنّه حيوان صعب المراس ويحتاج إلى الكثير من الانتباه، والذين يتعاملون مع أحدها يجب أنْ يكون لديهم موقف خاص جداً منها. ولكن، بالنسبة إلى البدو، الجَمَل هو كل شيء.

الجَمَل يقود الرجل إلى المرعى، لكنّ الدغل لا يسمح للحيوان الضخم بالتحرك بسهولة، ولذلك يُضطر الرجل إلى فتح الطريق له، فيزيل الأغصان لأجله، ويحميه من الحيوانات الضارية، ويُعالجه من الأمراض.

بين الجَمَل والإنسان هناك تكافل، يساعد أحدهما الآخر بالتبادُل.

بعيداً في شمال غرب صحراء أوغادن، ثمة رجل يُغني لجَمَله، ويُخبره بأنهما المخلوقان الحيّان الوحيدان على شاطئ البحيرة المالحة، الضخمة، الممتدة كالسهل، حيث يسيران. بل إنَّ المكان يخلو من البعوض أو الذباب، لأنّه لا أحد غير الرجل وجمله قادر على البقاء حيّاً هناك.

وهو يُغني لحيوانه، «أنت أحبّ مخلوق لديّ في العالم، يا عزيزي.

«أنت الحيوان الوحيد القادر على العيش في هذا المكان.

«أنت الجمل الوحيد الجميل والمرن، والمشحون بالشجاعة أيضاً.

«أنت ملك الحيوانات كلها.

«انظر بعيداً إلى الجبال.

هناك لبوءة تختبئ.

«لكنكَ خائف من اللبوءة،

«وهي تخافك»

وبينما هو يغني لجَمَله هكذا، فإنّه أيضاً يُجيب، مُقلِّداً صوت الجمل: «نعم، نعم، أنت مُصيب، يا صديقي»

إنها أغنية طويلة جداً، يُغدقُ فيها الرجل حيوانه بعبارات المديح وهما يقطعان ببطء صحراء من الحجارة.

الجمل يوافق على كل ما يقول الرجل له في الأغنية. بصوتٍ عميق وأجش. وبين حين وآخر بصوت مرتفع وحادّ.

بدويّ وجمله، يسيران ببطء متجاورين، ولا أحد منهما يشعر بالوحدة.

تقع سورما في إثيوبيا. لا طرقات تؤدي إلى سورما ولا وجود لها على الخريطة. لقد عاش الشعب البدويّ هنا طوال قرون. وفي أثناء فصل القحط الطويل اكتشفه العالم الخارجيّ عندما بدأ ينقرض. ثم، داخل فسحة مكشوفة بين الأشجار الجافة، أُزيلتْ حجارة الصحراء الرماديّة وتمَّ إعداد مهبط ارتجالي للطائرات، في قلب الصحراء.

جلبت طائرة DC – 3، أو ملاك الرحمة، كما يُسمونها، والبالغة من العمر أربعين عاماً، والشهيرة، بعض الأمل إلى الأرض اليباب التي ضربها الجوع، على شكل طنّين من الحبوب لكي يتمّ تقاسمها بين ثلاث عشرة مُقاطعة.

سورما ليست وحدها إذن، بل هناك بوم، وكيليم، وبال، وإلكير، وتشيريت، ودولو، وأيمي، وبولكي، وغوده، وكيلافو، وويردير، وديغ بور.

لن تعثر على هذه الأسماء كلها على الخريطة وربما ستختفي من دون أنْ تترك خلفها أي أثر، بالإضافة إلى البشر الذين كانوا يسكنونها.

أناسٌ صامتون جالسون على الأرض على شكل أرتـال، يكسوهم الغبار الرمادي، يرفعون أبصارهم إلى السماء، ويُصغون طوال الوقت إلى الأصوات المتغيِّرة للريح. لعل في هذا اليوم يصل ملاك الرحمة.

نحطّ بطائرتنا على أرضٍ وعرة في الفسحة المكشوفة. ويُخبروننني بأنني أول امرأة بيضاء تقوم بزيارة سورما. سوف نمكث المدة الكافية لتوزيع الطعام الذي نجلبه.

يتلقّى مرضى صِغار في الثالثة والرابعة من العمر حصصهم الصغيرة، ثم

يبتعدون ببطء حاملين أوعيتهم الخشبيّة من الحبوب التي يجب أنْ تكفي عائلة كاملة. وهذا اليوم المتلقّون الوحيدون للطعام هم الأطفال الصغار.

تغني مجموعة من النسوة لكي تجذب انتباهنا. وفي آخر مناسبة نجح الأمر – وحصلن على حصّة. وقد تنجح المحاولة من جديد.

أراقب النسوة، في الغالب يحملن أطفالاً يرضعون من أثدائهنّ الناضبة، مع أطفال آخرين مربوطين إلى ظهورهن. سوف يمشين مسافات طويلة حتى يعثرن على ثمار جوز أو توت بري صالح للأكل، أو على أغصان أشجار من أجل ترميم ملجئهنّ. وبسبب اجتياح المجاعة الشديدة، سوف يحفرن حفراً لاستخراج الماء – عميقاً، عميقاً، داخل الأرض القاسية، من دون الاستعانة بأيّة أدوات – في الصحراء، يستطيع المرء أنْ يرى الفوهات الفارغة منتشرة على امتداد أميال.

فجأة نمرّ بتجربة جميلة:

تتكلّم امرأة معي ومن ثم تُقرِّر أنْ تُلبسني ثوب عروس. ولم أعرف السبب قط. وتجدِّل شعري. فأسألها، «هل سأحصل أيضاً على عريس؟»

فتجيب «إنّه في الطريق إليك، على ظهر حصان أبيض، أعدك بهذا»

وأقول لامرأة أخرى، بينما تُحيط كتفيّ بوشاحها، مُشيرة إلى ابنتها، «لديّ ابنة بمثل عمرها»

تبتسم. «كلا، مستحيل، أنتِ صغيرة جداً»

أقول «لكنّي متأكّدة من أننا، أنت وأنا، في عمر واحد»

لكنها لا تصدّق كلامي.

ثم أقول «حسن، ربما أنتِ تقومين في حياتك بعمل مُتعب أكثر من عملي». تصمت، وتنظر إليّ، ومن ثم تبتسم وتقول، «أوه، نعم، أعتقد أنكِ أمضيتِ وقتاً طويلاً في الجلوس»

تصل فتاة ؛ وجهها مصبوغ بالدهان الأصفر.

«لِمَ تدهنين وجهك بالصباغ؟ ما السبب؟»

«هذا ما نفعله. نحن نعلم أنَّ هذا يعمل على شدّ بشرتنا»

«كالقناع؟ كقناع الوجه؟»

«نعم»

«هل هذا سيجعلك جميلة؟»

«نعم»

«هل أستطيع أنْ ألمسه؟؟ أوه، نعم، إنّه قناع للوجه»

«يمكن أنْ يكون أبيض أو أصفر. حسب المناسبة»

«مما هو مصنوع؟»

«من جذور الأشجار»

«قناع جميل!»

«من المُفتَرَض أنْ يبقى نصف نهار، ومن ثم نزيله»

«ونحن نفعل الشيء نفسه»

بعض الأطفال يجرونني بعيداً، ونركض جميعاً على شكل دائرة ونلعب مدة طويلة جداً، وعندما ينال مني التعب ولا يعود في مقدوري أنْ أستمر في اللعب، أقول إنني يجب أنْ أذهب.

يصرخ الأطفال، «عودي والعبي معنا في يوم آخر»

أقول «أنا كبيرة في السن ولا أستطيع أنْ ألعب هكذا»، فيضحكون ويقولون، «لا يهمّ. نحن صغار ونصلح للعب معك»

ثم يحين وقت المغادرة.

سوف يبقى في ذاكرتي أناس جالسون ضمن صفوف صامتة، بشرٌ ينتظرون بصبر على التراب الرمادي الطعامَ الذي من الممكن أنْ يصل اليوم، وليس في الغد، ولا في اليوم الذي يليه.

في ذاكرتي سوف تبقى مجموعة من النساء يغنّين، بأيد فارغة، عندما تبدأ طائرتنا بالاندفاع على المدرج الضيِّق استعداداً للإقلاع.

أراقب سورما تختفي عن البصر، ولكنْ في ذاكرتي سوف يختلط هذا الواقع مع صورة جديدة غريبة معاً: عندما يقول ربّان الطائرة إنّه سوف يُريني قطيعاً من الخيول البيضاء البريّة.

قبل أنْ نصل إلى النجد الجبليّ حيث تتواجد، يقول، «قريباً سوف ترين. آه، قريباً سوف ترين» وعندما اقتربنا أكثر: «والآن قريباً جداً سوف نصل – قريباً جداً، جداً. على الجانب الأيسر سوف تشاهدينها. إنها بيضاء وبريّة، ولا أحد يعلم متى تأتي إلى هناك. وفجأة، ذات يوم، تظهر!»

تتحرَّك طائرة ملاك الرحمة في حركات دائريّة ببطءٍ شديد فوق نجدٍ مُربَّع الشكل، مرتفع، لا توجد طرقات تؤدي إليه، ومن ثم أراها: قطيع من الجياد البيضاء الأنيقة، ترعى العشب بهدوء. ذات أجساد نحيلة، وقوية، في تناغمٍ مثاليّ، ينتمي كل منها إلى الآخر وإلى العالم. ولا تُبدي أيّة ردّة فعل أمامَ هدير طائرتنا.

يهمس الربّان بسعادة «إنها بريّة، إنها بريّة! ولا أحد يعلم من أين أتتْ!»

وتقوم طائرة ملاك الرحمة بدورة جديدة في السماء، وتطير بالقرب من الجبل، كأنها طائرة هيليكوبتر، وها هي تظهر من جديد.

جياد بيضاء نحيلة، وجميلة، ترعى بهدوء على المرج النضِر. لا أحد يعلم كيف ولماذا وصلت إلى قمة النجد. لكنها هناك، لا يمكن لمسها.

ثم غابت عن أبصارنا.

قيل لي إنَّ طائرة ملاك الرحمة تنقصها قطع الغيار. إنَّ الطائرة، كالبشر، لها مدّة صلاحيّة.

على الرغم من أنَّ لا أحد أخبرني ذلك، فإنني أعلم أنّه في غضون عام سيبقى شعب سورما ينظر إلى السماء ويُنصِت دائماً إلى الأصوات المتغيِّرة للريح. في ذلك اليوم لن تصل طائرة ملاك الرحمة. لا في ذلك اليوم ولا في أي يوم آخر. أبداً.

قريباً سوف ينتهي عصر الملائكة.

أراها واقفة تائهة وسط الألم وطفل شديد الضآلة بين ذراعيها.

اجتاحت منطقةَ مُخيّمها المجاعةُ وأهلكتها، وطفلها يحتضر من شدّة العطش.

أمامها حفرة مياه تحتوي مياهاً ملوّثة، غليظة القوام.

كان أمامها خياران: إمّا أنْ تترك طفلها يموت من الجفاف أو تتركه يشرب من المياه المسمومة.

أراقبها تتخذ خيارها.

تنحني، جاعلة راحة يدها على شكل كوب وتملأها بالطمي، ثم ترفعها ببطء إلى فم وليدها.

في الصومال يعبُر ألفان أو ثلاثة آلاف لاجئ جديد الحدود في كل يوم. والآن أصبحت أعدادهم تفوق أعداد سكان العديد من الدول الإفريقيّة.

أقوم بزيارة مخيّمٍ للاجئين افتُتِحَ قبل شهر وحتى الآن لجأ إليه 75000 إنسان. وفي كل يوم يتدفق إليه مئات الأشخاص.

يتميَّز المُخيَّم بغياب الأشجار والشجيرات المنتشرة من المنطقة وحتى مئات الكيلومترات. هنا لا يجد الناس وقوداً من أجل إعداد الطعام، ولا خشباً لكي يبنوا لأنفسهم مأوى، وحدها الموجات الأولى من اللاجئين استولتْ على ما توفَّر منه والآن أضحت الأرض قاحلة.

ما أشدّ عقم الإشارة إلى غلي الماء الملوّث إذا لم يتوفر الوقود.

العائلات تضع أمتعتها القليلة على شكل دائرة حول المكان الذي استقرَّتْ فيه - وكأنَّ بعض الأطباق، وبرميلاً صغيراً، وركاماً من الملابس سوف تمدّ بالحماية، كيف يمكن تجنب التجمّد من البرد ليلاً عندما لا يتوفر سقف وجدران تحمي الجسد؟

قبل يومين بدأتْ فتاة في الرابعة عشرة بوضع مولودها تحت شجيرة بينما أخذتْ أمها تركض حولها وهي تصرخ يائسة. تصرخ في الصحراء من أجل ابنتها. لقد أصبح عذاب الفتاة هو عذابها.

عندما وُلِدَ الطفل، الذكر، بعد أربع وعشرين ساعة حافلة كادت الفتاة من خلال صراعها تموت، واصلت المرأة الأكبر سناً صراخها.

أنا لم أسمع الضجيج، لكنَّ الذين شاهدوا الثلاثة مجتمعين معاً في صحراء مُقفرة أخبروني عن عويلها. ببساطة لم تستطع أنْ تكبح جماح نفسها. وكأنَ الضجيج النابع من أعماقها أصبح جزءاً من كيانها.

جُلِبَت العائلة الصغيرة إلى مُخيَّم اللاجئين وهناك قابلت أفرادها.

كانت الفتاة الصغيرة تستلقي مع طفلها على الرمال. وبما أنَّ تلك المنطقة كانت بمنزلة مستشفى، أعطوها غطاءً لتقي به طفلها وخاط الطبيب جسدها المُمزَّق. كان والده يُقاتل في مكان ما من إثيوبيا، ولم تسمع أخباره منذ سبعة أشهر، ولا تعلم إنْ كان حيّاً أم ميتاً.

ثلاثة أجيال من عائلة صغيرة على رمال مخيَّم للاجئين سوف يُنقلون قريباً من منطقة المستشفى لكي يفسحوا المجال لمحتاجين أكثر منهم.

النساء يقفن ضمن مجموعات صغيرة في انتظار الحصول على حيِّز يستقررن فيه. يُحيِّنني بكلمتيّ «***ناباد غتابو***» وهي تعبير عن السلام.

بعضهن يحكين كيف انتزع الجنود أطفالهن منهنّ.

إحدى النساء تبكي لأنها فقدت خمساً من بناتها وصبيّاً واحداً.

وامرأة أخرى تبكي لأنه ليس لديها مَنْ تفقده ولطالما كانت وحيدة.

وامرأة جاءت خالية الوفاض وخشيتْ ألّا يعطوها أي طعام أو ماء لأنّه ليس معها ما تأخذ به.

إحدى النساء تقف على رمال الصحراء الملتهبة حافية وتقول، «أنتِ يا مَنْ تسمعين عن مصيرنا، ساعدينا أرجوك»

يبدو لي أنَّ العديد من الناس الذين قابلت لديهم أمل، على الرغم من أنني لست متيقّنة من أنهم يعرفون ما الذي يأملون فيه. لكنني أعتقد أنّه عندما يصل المرء إلى ذلك الدرك من اليأس، فإنَّ الأمل هو أفضل ما يمكن التمسّك به.

يطلب الطبيب مني أنْ أتبعه، قائلاً إنَّ هناك سيدة عجوزاً يجب أنْ أقابلها، تقول إنها جاءت إلى المستشفى تشكو من ألم في ظهرها وفي حوضها، وتعجز عن المشي، ولديها إعاقة خطيرة جداً.

في الطريق، أمرّ برجلٍ يطأ بقدمه الخشبيّة التراب بغضب، لقد مزّقتْ رصاصة ساقه. يضرب بقبضة يده بقوة ساقه الخشبيّة مراراً، وبصوت مسموع. كان يحمل طفلاً على ظهره، ويهتف، «هذا ما تبقّى لي. هذه هي حياتي»

عندما أقابل السيدة العجوز تبدو بأحسن حال؛ إنها جالسة بشكل لائق وبثقة على ملاءتها داخل خيمة. وإليك حكايتها:

«أتيتُ إلى هنا لا تغطيني إلّا قطعة من القماش. زوجي وابني قُتِلا. شهدتُ ذلك بأمّ عيني – ولكن لا أحد مسّني بأذى. وفي الطريق، وجدتُ مجرى ماء، ولكن بعد أنْ جلستُ لكي أشرب وأُطفئ عطشي، أدركتُ أنّه ليس في استطاعتي أنْ أجلب أي مقدار منه معي أتزود به في رحلتي، بما أني لا أحمل أيّ وعاء. فعندما هربتُ من منزلي لم أرغب في أنْ يراني الجنود وأنا أهرب. شعرت بامتنان شديد لأنهم لم يمسّوني بسوء، وكنت شديدة الخوف لأني شهدتُ مقتل أفراد عائلتي. ورأيتُ أني إذا تركتُ منزلي خالية الوفاض فلن يعرفوا أنني أهرب لأصبح لاجئة في الجانب الآخر من الحدود.

«لا أتذكَّر كم قطعتُ في سفري. في البلدة التي غادرتها مات العديد من الناس، ومنذ ذلك اليوم تملّكني الخوف دائماً، ونسيتُ أشياء كثيرة»

لاحقاً، سألتُ الطبيب إنْ كانت المرأة قد تحدثت بشأنْ عودتها إلى وطنها. فقال كلا. بل إنها لم تغادر خيمة المستشفى. وكلما تطرّق أحدهم إلى إمكانيّة ذلك، كانت تستلقي وتشكو من عدم قدرتها على تحريك ساقيها.

يقول الطبيب «إنها تريد أنْ تمكث هنا وتتلقّى المُعالجة والعناية، وسوف أبقيها هنا طالما أنا هنا».

يبدو المشهد مُبهرجاً تحت أشعة الشمس: الأطفال يلعبون، وخيام المستشفى الصفراء البرّاقة، والناس وأمتعتهم، والملتجآت البدائيّة التي صنعتها النساء من الشجيرات المنحنية، وعلى التربة البيضاء والبنيّة ثم قِطَع من القماش والخرق التي خيطت معاً، وأقمشة من أنواع شتّى. ولكن إذا مشيت في المخيم عند حوالي الساعة السادسة صباحاً، يكون الهواء شديد البرودة وسوف ترى أجساداً صغيرة، ونحيلة، ترتعش. الأطفال يوشكون أنْ يموتوا لأنَّه حتى الأغطية تُعتبَر رفاهية هنا. الأطفال الصغار ينامون متقاربين – بل متضامّين معاً، كأنهم لا يستمدون الدفء إلّا من أجساد الآخرين الواهنة والنحيلة كأجسادهم.

أتساءل بمَ يحلمون.

خلال تلك الأيام يتفاقم شعوري بالغضب. *أريد* أنْ أكون غاضبة. الغضب يدفع إلى العمل، يؤدي إلى احتمالات التغيير. إنّه خَيار الاحتجاج.

لِمَ نشأتُ، كالعديد من النساء الأخريات، على إنكار حقي في التعبير عن الغضب؟ لِمَ يُعتبَر الغضب صِفة غير أنثويّة ومُنفِرة جنسيّاً؟ لِمَ أراقبُ بصمتٍ عندما يُكافح الرجال بحماس من أجل ما يعتقدون أنّه حق، في حين أنَّ تعبيري عمّا أؤمن به يُعتبر جزءاً من «الحركة النسائيّة»، ولا يؤخَذ على محمل الجد؟ لقد تلقّيت التأنيب لأنني عبّرتُ عن الحاجة إلى التغيير، تغيير اللغة السياسيّة للرجال، وكبرياء وذكوريّة ونفاق العديد من قادتنا. لم أتلقَ

فقط التأنيب بل وُصِفتُ بأني عدوانيّة ومُخيفة للرجال. والعجيب أنَّ العديد من النساء يخشين عرض معتقداتهن كما يشعرن بها بالضبط؛ بل يخشين مشاعرهن الخاصة حيال الغضب.

بينما نحن النساء نراقب، يُنفّس الرجال عن غضبهم من الذين يُخالفونهم الرأي، مُدّعين أنهم يخدمون هدفاً اجتماعيّاً أرقى. ويتركوننا نواجه عالماً متوحشاً وتنافسيّاً.

إنني غاضبة، وحانقة وأنا أراقب الأطفال يُعانون بينما أعلم أنَّ مليارات الدولارات تُنفَق على آلة الحرب وعلم التدمير.

إنني أتعلَّم أنني إذا اكتفيتُ بالاستمرار في قبول إطار الحياة الذي فرضه الآخرون عليَّ، وإذا فشلتُ في تحديد خياراتي الخاصّة، فسوف أفقد سبب حياتي، ولن أتمكّن من معرفة ما في استطاعتي تغييره.

أرفضُ أنْ أقضي حياتي أندم على الأشياء التي فشلتُ في إنجازها.

ثمة رجل ذو لحية طويلة يسترخي على رمال الصحراء، مُحاط ببعض ممتلكاته. «لن أتمكن من دخول بيتي بعد الآن، وهذا يُحطِّم قلبي. في الحقيقة، مهما كان نوع الحياة التي يستمتع المرء بعيشها، حتى إنْ كان يتوفر في هذا المُخيَّم مياه وطعام وجِمال كافية – فإنّه لن يكون هو المنزل. أنا أريد الانتماء – أنْ أشعر بالانتماء حتى بأضأل مستوى»

***

بينما أتجول بين مجموعة من الملتجئات، تسألني امرأة، «لِمَ لا تغطّين رأسك؟ هذا ما تفعله النساء المتزوجات هنا»

أقول لها، «أنا لستُ متزوجة»

«تقصدين أنْ تقولي أنَّ نساء أمثالك ممَّن يسكنَّ المدن الكبرى لا يستطعن العثور على أزواج؟». وترمقني بنظرة لطيفة، متفكِّرة، ومن ثم تذهب لكي تهمس لبعض الرجال الواقفين بالقرب. وبعد نقاش قصير، يقترب الرجال مني، ويقول أكبرهم سناً «لا نريد أنْ نُبدِّد وقتنا في محاولة العثور على زوج

لامرأةٍ متزوجة أصلاً. أواثقة أنتِ من أنكِ لستِ متزوجة؟»، ومن جديد، أعترف بأني عزباء.

«أتُحسنين القراءة والكتابة؟»

«نعم»

«سوف نجعل الرجال كلهم يقفون صفاً واحداً، وتقومين أنتِ بانتقاء واحد منهم. وشرطنا الوحيد هو أنْ تعلِّمي الأطفال القراءة والكتابة»

أقول «لكنني لا أريد أنْ أتزوج»

«اسمعي، أنت لديك مشكلة ويجب حلّها. وبعد أنْ نحل لك مشكلتك، تستطيعين أنْ تساعدينا في حل بعض من مشاكلنا»

أقول «أنا أريد أنْ أعيش وحيدة»

«من أين أنتِ؟»

«من النرويج»

«إنَّ رجال النرويج ليسوا رجالاً»

جاءتنا امرأة مهرولة. قيل لي إنَّ الجنود تسبّبوا لها بحروق شديدة قبل أنْ تهرب إلى مخيم اللاجئين. والشخص الذي شهد وصولها قال «أتذكَّر كم كان وضعها فظيعاً عندما وصلتْ، كأنها كانت ميتة أصلاً»

رأيتُ مدى سوء حروقها، لأنَّ وجهها وجسمها كانا بلونين مختلفَين. وطفقتْ تُقبِّل يديّ الطبيب وتردِّد مراراً قائلة «شكراً لك. باركك الله»

سألها الطبيب، «كيف حال شَعرك؟»، فرفعت الضماد وإذا بجزء من فروة رأسها مُجرَّد من الشَعر ورأيت الندوب. كانت دموع المرأة تنهمر على وجنتيها وارتسم على وجهها تعبير جميل. «أنت أنقذتَ حياتي»

وبينما نحن الثلاثة جالسون، والأطفال يتجمعون حولنا يُصغون بلهفة إلى اللغة التي لا يفهمون، بأفواه فاغرة وعيون لا تفوِّت أي تفصيل، يحكي لي الطبيب قصّتها.

كانت تعدّ الشاي لولديها اللذين يجمعان الحطب. وهم عائلة من البدو منذ أجيال طويلة، استقروا بالقرب من الطريق العامة. ويبدو أنَّ جنوداً

متقدّمين لمحوا الدخان، فاقتربوا ورأوا امرأة عجوزاً تعدّ الشاي بهدوء لتضعه على نار مستعرة وعلى مقربة منها ولداها يعملان.

عندما شاهد الصبيّان الجنود هرعا هاربين، أما هي فكانت طاعنة في السن وغير قادرة على الركض. ثم إنها كانت تعيش حياتها بهدوء، ولا تؤذي أحداً، ولا تنحاز إلى أي جانب في الحرب. تقدَّم قائد الجنود ببطء منها، وبينما كانت لا تزال تبتسم، وتهمّ بتقديم بعض الشاي لهم، أمسكوا بها من عنقها، ودفعوا بها إلى النار، وأجبروها على البقاء هناك بالدوس على وجهها. ووقفَ القائد فوقها وهي تحترق وقام أحد الجنود بصبّ الماء المغلي على ساقيها العجوزين. وعبثاً حاولتْ أنْ تهرب من وجه اللهب.

ثم، على الجانب المقابل من الطريق، ظهر رجال العصابات، وشاهدوا الشاحنات المتوقفة وما حدث، فوثبوا إلى مسرح الجريمة، وهم يصرخون، وبدأوا يُطلقون النار.

أصابت إحدى الطلقات قائد الجيش الذي كان يقف واضعاً إحدى قدميه على وجه المرأة، وسقط في النار.

ووقع تبادل لإطلاق النار. وقُتِلَ الصبيان الصغيران اللذان عادا إلى الظهور. وبعد أنْ توقف إطلاق النار أخيراً، لم يتبقَّ من رجال العصابات إلّا ثلاثة. ساعدوا المرأة على الخروج من النار، وأخبرتهم عن وجود ابنةٍ لها تعيش على مسافة مئة كيلومتر، فأحضروها إليها.

في أثناء عيشها مع ابنتها، تعرَّضَت القرية إلى الهجوم، فهربت على ظهر حمار، تاركة خلفها جثث ابنتها الأخيرة وأحفادها. واجتازت الحدود بوجهها المُشوَّه وجسمها المحروق. وأخذت تنتقل من مخيَّم إلى مخيَّم إلى أنْ وصلت ذات يوم إلى هنا وقابلت الطبيب وأعاد إليها الحياة من جديد.

بنوا لها مأوى جيداً في غضون ساعات، وأجروا لها عدداً من العمليات على فترات.

رأيتُ وجه السيدة العجوز يُشرق، وجسمها يتكئ على جسم الطبيب.

***

تعلّمتُ مثلاً سائراً تجاوز الحدود عبر أجيال عديدة، يقول «لقد خلق الله قرن إفريقيا في الصحراء، أما من رمال الصحراء فنما شعب من الأزهار»

في يوم عيد مولدي الثاني والأربعين، قدَّم حاكم موغاديشو لي هدية هي الزيّ الوطني لبلده. وحملتُ ذلك الزي، الذي يُمثّل سنيناً من التراث، فوجدتُ أنّه مُقسَّم إلى عدد من قطع القماش.

القطعة الأولى غطّتْ كتفيّ، وقد تطلب الأمر انهماك سيدتين عجوزين مدة نصف ساعة انهماكاً تاماً من أجل لفّ الهدية حول جسمي. وكما تفعل النساء عندما يزلن الكلفة فيما بينهنّ، ضحكنا، وتواصلنا باستخدام لغة الأيدي والإيماء.

الغريب في الأمر هو أنني نظرت في المرآة الطويلة، والضيقة، ووسط عتمة الغرفة، في الصباح الباكر، رأيتُ جسمي، المتدثّر بالقماش الثقيل، يتغيَّر شكله.

عندئذٍ مررتُ بتجربة التأثير الذي يمكن أنْ ينبثق من زيّ ما.

تحكَّم الزي بحركاتي، ومعالمي، وحتى بأفكاري. لكنني لن أُضطر إلى التحرّك وأنا أرتديه. هذا لي وحدي.

أنا وثوبي نراقب نفسينا في مرآةٍ زجاجُها غير متناسق.

وفي هذه الغرفة ذات الإضاءة الضعيفة في الصومال، وأنا أعقد صلة صداقة مع امرأتين من دون الاستعانة بالكلمات، أصبحتُ متيقّنة من هويتي.

أتذكَّر أنني كنتُ أمثّل في عمل موسيقيّ على مسرح برودواي. كم يبدو ذلك منذ زمن بعيد. وذات ليلة كنتُ واقفة في أجنحة خشبة المسرح في انتظار أنْ يحين دوري. نظرت نحو الأسفل إلى مئزري الطويل، الباهت وأدركتُ فجأة أنني أمضيت مُعظم حياتي الراشدة مرتدية ملابس شخص آخر. على مدى أكثر من خمسة وعشرين عاماً سافرتُ حول العالم – ظهرتُ على خشبات مسارح مختلفة، وعملتُ في استوديوهات أفلام مختلفة، ومواقع تصوير مختلفة، وارتديت أزياء مختلفة.

كنت دائماً أتظاهر بأنني شخصيّة أخرى.

منذ الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من المساء، كنتُ أرتدي أثواباً صُنِعَتْ من أجل امرأة أخرى عليَّ أنْ أتلبّسها، عبر تجسّدها.

أحاديث. رجل عجوز يُرتّل سوراً من القرآن.

يقول إنه يُريد أنْ يتحدّث عن القرآن الكريم. «يجب تصديق رسالة القرآن حرفيّاً. ربما هناك الكثير من الأشياء تغيَّرتْ منذ أيام محمد، لكنّها لم تتغيَّر في القرآن، وعلى الرغم من أنَّ التفاسير يمكن أنْ تختلف، فإنَّ كلام الله لا يمكن لأحد أنْ يُغيِّره. ربما من الممكن تغيير المؤسسات وأشياء أخرى وضعها الإنسان مع تغيُّر الأزمنة، ويمكن للناس أنْ يُكيِّفوها لكي تتلاءم مع أوضاعهم الخاصة في ذلك الوقت، لكنَّ كلام الله ثابت»

«كم من الوقت تنفق في كل يوم مع كتبك وصلواتك؟»

«أنا أقرأ معظم أوقات النهار والليل. أنا رجل عجوز، ويكفيني القليل من النوم. في الأكاديميّة، وفي أوقات فراغي، أقوم بالعمل الذي أُفضّله – أصلّي – أرتّل القرآن – أقرأ. أنا مستشار ثقافي في بلدي، وجنسيتي صوماليّة. وألَّفت قصيدة مشهورة، يعرفها الجميع في الصومال، وهي واحدة من أناشيدنا الوطنيّة الكبرى»

«متى ألَّفتها؟»

«في عام 1941. ونشيدي يتحدَّث عن الحريّة والاستقلال. أنا أحرِّض الناس، أحثّهم على التفاعل وأُبيِّن لهم كيف يُديرون شؤون بلدهم، بأنفسهم. وأطلب من الأجانب أنْ يُغادروا لكي يُصبح شعب الصومال حرّاً. هذه هي الفكرة الرئيسيّة لنشيدي»

ويبدأ العجوز بالنشيد، بصوته العميق والفائق الجمال. كانت عيناه صافيتين وزرقاوين كعينيّ طفل ويداه المجعدتان مضمومتين. وبعد الانتهاء

من النشيد يطلب مني أنْ أجلس بالقرب منه، ويقول، كأنّه يُفضي بسرٍ لصديق، «كنتُ أصلّي لله لكي يوحِّد سكان العالم ويُساعدهم على نسيان مشاكلهم المعقّدة بحيث يزول العدوان، ولكي يعيش الناس معاً، ويحلّوا مشاكلهم بسلام ووئام»

«هل أَلَّفتَ العديد من القصائد؟»

«نعم. أَلَّفت اثنتين وثلاثين»

«هل يُسأل الحكيم عن عمره؟»

«أنا في السادسة والسبعين وربما أكثر»

«وكم زوجة لديك؟»

«أربع. وربما أكثر»

«أمن الصواب اتّخاذ كل هذا العدد؟»

«نعم، إذا استطاع المرء إعالتهن. وأنا أستطيع، لذلك تزوجتُ أخريات بعد زوجتي الأولى»

«أمن الأفضل اتّخاذ أربع؟»

«بل من الأفضل اتّخاذ واحدة. ولكن إذا كان المرء قادراً على ذلك، يمكنه أنْ يتزوج ثلاثاً أخريات»

«ولكن ما الأصلح؟»

«واحدة»

«ولكن بما أنَّ اثنتين تشكلان مشكلة، وثلاثاً مشكلة أكبر، فلِمَ تتخذ أربع مشاكل؟»

يبتسم العجوز.

«كم لديك من الأولاد؟»

«دعيني أحصيهم. يجب أنْ يكونوا ستة وتسعين، مع الأحفاد. ستة وثلاثين من صُلبي»

«ستة وثلاثون طفلاً! من أربع زوجات؟»

«أنا تزوجت حوالي تسع»

«تزوجتَ تسعاً؟»

«بعضهن مُتن. حاليّاً لديّ فقط اثنتان»

«كم عمر أصغر أولادك؟»

«ثمانية أشهر. وإحدى الزوجتين حامل أيضاً»، ويضحك مُطوّلاً.

«منذ متى هي على ذمتك؟»

«منذ حوالي ثماني سنوات»

«وكم عمرها؟»

«خمسة وعشرون عاماً»

«أهي أيضاً أمّ الطفل ذي الأشهر الثمانية؟»

«نعم»

«وهل ستتزوج من المزيد؟»

«أنا مستعد للزواج من واحدة أخرى. وربما أكون مستعداً للزواج من فتاة أوروبيّة»

ينظر في عينيّ مباشرة ويضحك من جديد.

ذات ليلة شاهد الضابطُ الميداني لليونيسف، السيد ب.، النجّارَ الذي يعمل في مشروع إنشاء مدرسة جديدة، يدهن جسم طفله البالغ من العمر ثلاثة أعوام بالدهان الأبيض، فسأله السيد ب.: «لماذا تدهن هذا الطفل؟ سوف يُصاب بحساسيّة جلديّة، وهذا مُضرّ»

«لا أعلم. اسمع – هناك طائر في السماء، وهذا الطائر نظر بعين حاسدة إلى طفلي، وإذا لمْ أُخفِه، وأدهنه باللون الأبيض، فسوف يُصاب بالمرض، وقد يُعاني»

قال السيد ب. له: «هذا غباء مفرط. لا تؤمن بمثل هذا الهراء. لا تفعل هذا»

قال الرجل: «أنتَ قلتَ ما عندك. وأنا سمعتُك. ولن أدهن الطفل ما دمتَ قد طلبتَ هذا. أواثق أنتَ من أنك على صواب؟»

«في الواقع، أنا أعتقد أنّه من الأفضل ألّا تفعل هذا. أنا لا أؤمن بمثل هذه الأشياء»

في صباح اليوم التالي، قرعَ أحدهم على باب مركز اليونيسف. فتح السيد ب. الباب وإذا بمحمد واقف في الخارج مع ابنه. كان الطفل يُعاني من حمى شديدة ويرتجف.

قال الرجل، «لقد طلبتَ مني ألّا أدهنه، والآن انظر إلى الحال التي وصل إليها»

لم يدر السيد ب. ماذا يفعل. فأخذ الطفل ونقله بسيارة الجيب بأقصى سرعة إلى المستشفى، ووضعه تحت عناية الطبيب، وشُفي الطفل.

قال السيد ب. «ومنذ تلك اللحظة، قبل خمسة وعشرين عاماً، لم أتدخّل بمعتقدات الآخرين»

ثم حكى السيد ب. الذي كان يعمل في الصومال لمصلحة عدد من منظمات الإعانة المختلفة لأكثر من ثلاثين عاماً، حكايته:

«في الواقع، كنا نعمل على مشروع من أجل تطوير المهارات الحرفيّة، وأحدها كان صناعة الفخّار. كنا مشحونين بالحماس، وكان المسؤول عن المشروع أستاذاً جامعيّاً مكسيكيّاً طلب مني أنْ أشتري معدّات جديدة عصريّة – على سبيل المثال، دولاب صناعة الفخار.

«وكان الناس هنا خبراء أصلاً في صناعة الفخّار. فعلى مدى قرون صنعوا أوعية لحمل الماء من الطمي. لكنهم كانوا يضعون الطمي على حجر دوّار، ويجلسون على الأرض، ويُحرّكون الحجر المستدير ويقومون بتشكيل الطمي بأصابع أقدامهم بأحجام مختلفة.

وصل النمط الأوروبيّ لدواليب صناعة الفخّار، وعلَّمنا الناس طريقة استخدامها. وكانوا سريعين في التعلُّم، وفي اليوم الختاميّ من الدورة التعليميّة، شكرونا وقالوا:

«نحن شديدو الامتنان. وعندما تغادرون سوف نحتفظ بأدواتكم كلها في

زوايا أكواخنا. ولكن عندما يكون برفقتكم زائر هام من موغاديشو أو من نيويورك، سوف نُخرِجها ونعرض عليكم براعتنا في استخدامها»

زوجة دبلوماسيّ أوروبي جالسة بجواري في حفل عشاء في جيبوتي، تقول: «كما تعلمين، لم تعد هناك أيّة مشاكل. والإعانات تصل إلى الجميع. وأعتقد أنَّ هذا كثير. لقد أصبحوا مُدلّلين. والحديث حول هذا الموضوع مملّ حقاً»

أطير فوق جيبوتي بطائرة هيليكوبتر مفتوحة. ومع كل انعطاف أشعر كأني سأسقط منها. إنني شديدة الخوف بجلوسي وسط العراء، لا يحميني إلّا سقف معدنيّ. ولسببٍ ما يُعيد ذلك إليّ ذكرى من الطفولة لحيواناتي من الدُمى، وسائل النقل اللينة والآمنة بالنسبة للبريء. أتذكَّر أنني كنتُ أضعها في السرير في كل مساء، وأغطيها بعناية، مهما كنتُ مُتعبة. وعندما كنتُ أُضيِّع أحدها، أبقى يقظة ينهشني القلق، أتعرَّف على الخوف من تركي وحيدة ليلاً، وأشعر بمدى البرودة التي يُعاني منها الحيوان، متسائلة إنْ كان يعتقد أنّه لم يعُد محبوباً.

من مكان جلوسي، أرى الصورة الأساسيّة للمجاعة: ما كنتُ أعتقد أنها طرق، صرتُ أدرك بالتدريج أنها أنهار نضب ماؤها.

يبلغ تعداد سكان جيبوتي 303,000 نسمة، وهي متخمة بعددٍ إضافيّ يبلغ 30,000 لاجئ. ونسبة 15% من السكان تتألّف من النازحين الذين أُجبروا على مغادرة بيوتهم والعيش في مخيمات بسبب المجاعة. وكل تسع من عشر نساء حبالى مُصابات بفقر الدم. وفقط 11 من أصل 12 من الأطفال وُلِدوا أحياء. و 60 % من الأطفال يعانون من سوء التغذية.

يقول لي وزير الخارجيّة الذي يُرافقني: «لدينا فائض من اللاجئين ونحن فقراء جداً. لكننا لا نخذل أي شخص»

ذكريات عن حفلات شاي ترتدي فيها دُماي وحيواناتي ملابس جميلة وتجتمع على سريري ـ يوزَّع على كل منها فنجان صغير، وكعك ومشروبات مصنوعة من الهواء، وأحاديث نُسيَتْ منذ وقت بعيد. حفلة لا تُقاطَع إلّا عندما تفتح أمي الباب وتعلن أنَّ العشاء أصبحَ جاهزاً. والعبق الشهيّ للطعام ودفء غرفة الجلوس.

بعد مغادرة الصومال، يُخبرني أحدهم، «عندما تذكرين اسم «جيبوتي» لا أحد يرغب في الذهاب إلى هناك. قد لا يكون آخر العالم، ولكن يمكن مشاهدتها من هناك»

كتبت اسم «**جيبوتي**» على راحة كفّي بحبر أخضر لكي أتذكّره في المستقبل.

تهرع امرأة إلينا حالما تحطّ طائرتنا في مخيَّم علي صبيح للاجئين، غاضبة ولا تكفّ عن الصياح. تريد منا أنْ نكون شاهدين أمام الجميع على ظلم الحياة. لا تسأل عمَّن نكون. إنها درداء الفمّ، ممّا يجعل كلامها يبدو أحياناً غير مفهوم، حتى عندما تهدأ. وهي عمياء وتشير إلى عينيها. الجواب الوحيد الذي أدلي به هو تقبيل وجنتيها المُخضّلتين بدموع الإحباط.

تجولتُ في المخيم. الجو شديد الحرارة وكل شيء مُغطى بطبقة من الغبار الرمادي. والمحيطون بنا يحتضرون من شدة العطش.

تتنهد أمٌ حامل وتجلس على الأرض، كأنها تبذل مجهوداً خارقاً، وتتمايل جيئة وذهاباً، وذراعاها تضمان طفلتها: «إنها لا تحصل على الطعام وأنا لا أنال أيّة معونة من المركز الصحي – إنهم لا يمدون يد المساعدة إلّا للأقوى لأنّه ليس لديهم ما يكفي من الدواء. إنني الآن أنام طوال النهار. ماذا أستطيع أنْ أفعل غير هذا؟»

نغادر، ومن الجو أراقب الأطفال يزدادون ضآلة أكثر فأكثر.

تسبّبت الحرارة لي بفرط التعرّق حتى إنَّ شَعري أصبح كله رطباً، وبدوتُ كأني أبكي وامّحت الكلمة المكتوبة على راحة كفي.

فإذا بكى
فإني أعلم اليوم وأنا أكتب هذا
أنَّ دموعه جفّتْ، وأنَّ ألمه انتهى.
قلبي مُترع.
إنَّ صورة صبي صغير أمسك إصبعي،
ومنحني شرارات الفهم –
تجعلني أرغب في اتّخاذ تلك الخَيارات
التي تخصّه وتخصّني أيضاً.

ذات يوم لم أعُدْ أُصدِّق كلمات آنْ فرانك «البشر طيبون في أعماقهم»

ذات يوم ولجتُ جناحي في الفندق في نايروبي وكان المذياع يذيع أغنية «الأجراس المُجلجلة». الوقت قُبيل عيد الميلاد. كانت الغرفة محميّة وجميلة، وتوافدت الذكريات السعيدة عائدة إليّ من عهد الطفولة مع انسياب الموسيقى.

ثم، بالتدريج، توقفت عن التصديق، عندما عادت صورةٌ لصبيّ صغير في الصومال إلى الحياة خلف عينيّ المُغمضتين.

اجتاحت صورة طفل روحي وقلبي، صبي صغير قبضَ على إصبعي وقادني إلى وجهة غير معروفة حول مخيَّم اللاجئين. صبي صغير عارٍ يحمل طبقاً فارغاً وعينين – آه – عمرهما مئة عام، ومؤخرة صغيرة مُجعّدة كمؤخرة رجل عجوز.

كان ينبغي أنْ أرحل بعيداً عن مهنتي وعن أحبائي وعن الأحداث التي مررتُ بها، قبل أنْ يُثبت لي ذات يوم صبيٌّ صغير – ضحيّة مثاليّة للحرب واللامبالاة _ أنكِ مُخطئة، يا آنْ فرانك. لقد بيَّنَ لي صبي صغير أننا لسنا جميعاً طيبين في أعماقنا، لأنه ذُبِحَ بسبب افتقارنا إلى التعاطُف.

ومنذ ذلك الوقت، وهذا الطفل الصغير يُلازمني، ويده الصغيرة النحيلة ما زالت تُمسك إصبعي. صبي صغير واحد تأثّرتْ حياته القصيرة بأولئك الذين

لا يعلمون حتى بوجوده. صبي صغير ليس لديه أيّ خيار، لأنَّ الخَيارات كانت تُتّخذ فوق رأسه وحتى لم يُشارك فيها. صبي صغير تأثّر بخيار بارد، أو ربما بغياب الخيار، سوف ينطرح قريباً على رمال الصحراء ويموت.

وهكذا أريد أنْ أفهم ما هي خياراتي ***أنا*** وأنْ أعمل وفقها. لأنَّ الخيار هو جوهر معنى ما أؤمن بأنّ أكون إنساناً.

أريد أنْ أكافح القِوى التي تُنكِر على فردٍ أو شعبٍ حقّ اتّخاذ الخيار.

وبما أنّي أفهم أنَّ لا شيء واضح المعالم، يجب أنْ أحاول أنْ أتعلَّم قبول الغموض أيضاً، وأنَّ أصعب لحظات الحياة مُبهمة، وأنَّ أعمق طموحات الجنس البشري لها تكاليف كما أنَّ لها فوائد.

الصبي الصغير الذي خياره الوحيد هو أنْ يعيش بخيارنا نحن.

تجوّلتُ معه، ويده تقبض على إصبعي، وعيناي تنظران إلى رأسه الصغير ذي الشعر الأسود الناعم المكسو بالغبار، رأس لم يتحرّك قط أو يلتفت نحو الناس الذين مررنا بهم.

عندما توقفت عن البكاء من أجله، علِمتُ أنّه علَّمني درساً، منحني منظوراً عمَّقَ حياتي، لأنّه لم يعد في استطاعتي أنْ أتعايش مع براءتي. لقد أجبرني على التعايش مع خياراتٍ لا هو ولا أنا كنا نعلم عنها شيئاً عندما تقابلنا.

أودّ لو أُكرِّس حياتي لطفلٍ لم أتحدث معه قط – ويكاد يكون من المؤكَّد أنّه لم يعد على قيد الحياة في صحراء إفريقيا، مع طبقه الفارغ، ومؤخرته الصغيرة المُجعّدة، وعينيه الطاعنتين في السن.

أحاديث. موقع التصوير: أوسلو، في النرويج. (***الوقت مساء. مائدة العشاء ممدودة بصورة جميلة مع فضيات برّاقة وكريستال. هناك ورد – وزجاجة شمبانيا فارغة. هو يملأ كؤوساً جديدة بالنبيذ الأحمر. وهي تحمل الأطباق إلى المائدة – الطعام غنيّ بالألوان وينبعث منه البخار***)

هو (يتذوّق النبيذ): آمل أنْ تكوني قد دوَّنتِ أفكاركِ الرائعة حول الجياع والمضطهدين. (***تنظر إليه. وتوزع الطعام***)

هو: يجب أنْ أعترف بأنَّ غضبك يفوق ما يمكن لرجل أنْ يتوقّع من امرأة. (رافعاً كأسه) إنني ببساطة لا أفهم عمّ تبحث امرأة جميلة بين المتسولين. ولكن بما أنني أحبّك، فإنني أحترم خياراتك. أهلاً بك حيث تنتمين. أهلاً بك في بيتك. (***لا تقُول أيَّ شيء. يشربان. يجلسان قليلاً وسط الصمت***)

هو: أتعتقدين أنَّ بعضَ النساء تقدّميات لأنهنّ شهيرات؟ (***تبتسم، ولا تقول أي شيء***)

هو: لديّ سؤال هامّ. هل تساءلتِ يوماً إلى أين تذهب نقود الإعانات التي نُقدمها للجياع؟ (***لا تقول أي شيء. يجلسان وسط الصمت***)

(***تدور آلة التصوير حول الغرفة التي يجلسان فيها .الكتب. جهاز التلفاز. جهاز ألعاب الفيديو. جهاز تنقية الصوت الباهظ الثمن. الأثاث باهظ الثمن. بعض القطع الأثريّة. اللوحات الجيدة. توقف***)

هو: تبدين بأحسن حال. إنَّ السَفَر يفيدك.

هي: شكراً لك. (**سكوت**) أنت أيضاً تبدو في أحسن حال. لقد زاد وزنك. الابتعاد عني يُفيدك.

هو: أحاول أنْ أبدو شبيهاً بك. (***يضحك. وسكوت***)

هي: وجودي هنا يُشعِرني بالأمان، لمعرفتي أنكَ أمضيتَ الوقت في إعداد هذا العشاء اللذيذ، وأننا عندما نأوي إلى السرير لن نكون وحيدين. (***ترفع كأسها. يشرب كلٌ منهما نخب الآخر. لقطة مُقرَّبة له***)

هو: لِمَ تعتقدين أنَّ عليك باستمرار أنْ تبحثي عن هدف؟

هي: أنا أعتقد أننا أتينا إلى الأرض مع أوامر مُصدَّقة. وأعتقد أنَّ الذين يفتقرون إلى الشغف وحدهم لا يبالون بالهدف. (***تبتسم. سكوت. لقطة تشمل مائدة العشاء كلها***)

هو: ما رأيك؟

هي: فيم؟

هو: في رحلتك.

هي: لحُسن الحظ، كل شيء غاية في السهولة. (***تصمت. لقطة مُقرّبة له***)

هي: ما رأيك؟ (***لقطة مُقرَّبة لها***)

هو: فيمَ؟

هي: في كل شيء. أنتَ الذي دائماً يسألني ***أنا***. دائماً تُعلِّق على ما أفعل ***أنا***. وما أقول ***أنا***. وعن حالي ***أنا***. لكني لا أعرف عنك شيئاً خارج نطاق كتبك. (***لقطة مُقرَّبة له***)

هو: لقد فقدتِ هشاشتك. وأنا اشتقتُ إليها. وفقدتِ سِمتك الأشدّ أنثويّة، حبي. (***تبتسم. ومن ثم تنهض ببطء عن المائدة. وتطوي فوطتها ببطء. وببطء تُعيد كرسيها إلى مكانه. ومن ثم، وبجزءٍ من الثانية، تتلاشى الابتسامة وتصرخ، وتُحطِّم زجاجة النبيذ على الأرض، وتضع كأس النبيذ بقوة على الطاولة، وتهرع خارج الغرفة. لقطة له وحده. لقطة للنبيذ الأحمر وهو ينتشر أكثر فأكثر على المفرش الجميل. وتتلاشى الصورة***)

الجزء الثالث

أشباح

هذه المرَّة اسمي جيني: «أردتُ أنْ أعيش لكي لا أحتاج إلى الشعور بالخزي كامرأة وكفنانة، ولا أفعل أي شيء أشكّ في صحّته. أردتُ أنْ أكون صادقة وصلبة وطيبة، وألّا أحمِّل ألم كائن بشري آخر على ضميري»

أشارك في العمل في فيلم نرويجيّ. وهذا الالتزام طويل الأمد يتضمَّن مواقع تصوير في ثلاثة بلدان أوروبيّة مختلفة. وعلى الرغم من أنَّ العودة للعمل مع أصدقاء قدامى من النرويج أمرٌ جيد، فإنني أجد نفسي طوال تسعة أشهر حبيسة العديد من إحباطات مهنتي التي كنتُ آمل ألّا أواجهها من جديد.

أسافر كثيراً. أحزم حقائبي وأحلّها، وأستيقظ في غرف فنادق غريبة، وأذهب إلى العمل في مدن مختلفة، وأتهيّأ للطيران إلى أرض الوطن للقاء لين، وأنتظر قابيل في مطارات جديدة دائماً، وأتّصل هاتفيّاً بمُحاميَّ وأرسل برقيات إلى وكلائي، وأردُّ على بريدي، وأُسدِّد فواتيري، وأشتاق إلى لين، وأقلق بشأن الحب وأعدُّ أيّام الفراق. إنني في حالة عمل دائمة.

وهذا يُناقض تصريحي: «إنَّ أهمّ شيء بالنسبة إليّ هو أنْ أكون كائناً بشريّاً». فأي نوع من الكائنات البشريّة أنا، وأنا دائماً في حالة توتّر وعمل؟

دائماً أراقب الناس، أجمع الملاحظات من الحياة المُحيطة بي - كأنني، بتلك الطريقة، أكتشفُ شيئاً، يحدوني الأمل في أنْ أميط اللثام عن حقيقة واقعٍ جوهريّ.

هل أنا كائن بشريّ فقط من خلال عملي؟ هل هناك شيء أمنحه من خلال التمثيل وغير قادرة على امتلاكه كفرد - سامحة للآخرين، من خلالي، أنْ يُميِّزوا ما عرفوه من قبل؟

هل هذه هي ليف التي تعيش حياتها الإنسانيّة؟

نورا[1] - لعبتُ هذا الدور على خشبات مسارح مختلفة. تعرَّفت على الكثير من جوانب شخصيتها. هل خشبة المسرح هي بيت الدمية الخاص بي؟ نورا، سيدةُ إبسن التي خرجت من الباب. نورا، التي كانت ذات يوم فتاة صغيرة في النرويج، فتاة صغيرة ترسم أحلامها إلى أنْ يُخبرها البالغون بأنها مُخطئة ويعلِّموها كيف ترسم على ورقة نسخة طبق الأصل لما يرونه هم: واقعاً لا مكان فيه للأحلام.

ينبغي أنْ يكون عملي هو أسلوبي في الحياة. وبالتالي حياتي هي عملي. لكنَّ الأدوار التمثيليّة لا تغيِّرني؛ الحياة هي التي تغيِّرني.

مؤخراً، غالباً ما كنت أجد أنَّ ما أقوم به على خشبة المسرح أو في استوديو التصوير السينمائي غشّ. وأصبحت أجد مشقّة في مجرد الانتقال من أحد طرفيّ خشبة المسرح إلى الطرف المقابل. وقد أخبرني لورنس أوليفييه ذات مرة بأنَّ شعوراً مُشابهاً ينتابه عندما يبدأ بأداء دوره. أصبح ذلك يشكّل عبئاً عصبيّاً عليه وبدأ يخشى ألّا يتذكّر الجملة التالية وهو يقول الجملة الأولى.

***

ربما هذا أزمة منتصف العمر. ربما لا اسم له. وربما هو ببساطة وعيٌ بالاختيار.

1- نورا: الإشارة هنا إلى الشخصيّة الرئيسيّة في مسرحيّة «بيت الدمية» لهنريك إبسن.

إنَّ كل ما اختبرته مؤخراً يُحرّكني بشكلٍ أعمق، ولم يعُد فهمي محصوراً داخل حدوده المبكِّرة. أصبحت أعرف أقلّ من السابق، ولكن فقط لأنني محاطة بالعديد من المسائل والبدائل الجديدة.

في أثناء تنفيذ هذا الفيلم النرويجي، تُصبح حاجتي إلى ترك التمثيل بعض الوقت وإجراء تغيير على حياتي أقوى من أي وقت سابق.

وإلى الخروج من باب خشبة المسرح وشقّ طريقي الخاص؛ وإلى الانعطاف من دون أنْ أعرف إلى أين ستؤدي بي الطريق.

لا أريد أنْ أصل إلى نهاية الحياة ومن ثم أُسأل ماذا فعلتُ بها وأُضطر إلى أنْ أُجيب بـ «لقد مثّلت»

بل أريد أنْ أكون قادرة على قول: «لقد أحببتُ وارتبكتُ. أحياناً استمتعت، وعرفت الحزن.

وأريد أنْ أفعل ذلك كله من جديد»

أنا أتعلَّم الشفقة، وأجد أنه سِمة توجد في العجائز وفي الأطفال، في التواصُل وفي العزلة. وأبحثُ عنه في نفسي.
عندما يكون الأشخاص في أشدّ الحالات عوزاً، يُبدون الشفقة المُطلَقة.

قبل أنْ أقابل قابيل بوقتٍ طويل، كتبتُ سيناريو فيلم بتكليفٍ من جهةٍ معيَّنة. ودُهِشتُ عندما طُلِبَ مني إخراج الفيلم. لا تتجاوز مدّته الخمس عشرة دقيقة، فيلم من مقطع واحد، وفيه تُدعى ست نساء إلى كتابة مفهومهن الخاص عن الحب. فهل أستطيع أنْ أقوم بإخراج ما كتبت؟ هل أجرؤ؟
يقول قابيل «وافقي»
أقول والرعب ظاهر في صوتي «ليس لديّ وقت»
يعِدني «سوف أساعدك»
مع ذلك، أتردَّد. أشعر بأنها مُخاطرة، لأنني كنتُ متعوّدة على تأويل الدراما بطريقة مختلفة. ومع ذلك، وافقت.

في اللحظة الأخيرة سحب قابيل اهتمامه بمشروعي. من الصعب عليّ أنْ أفهم أنَّ حياتنا معاً ستكون سهلة عليه إذا قلَّ انهماكي بأحداث تقع خارج نطاقنا نحن الاثنين. وأحياناً أعتقد أنَّه سوف يتألَّم بمقدار أقلّ إذا فشلت. وأنا، على غرار النساء اللواتي جئن قبلي وحتماً سيأتين بعدي، أكاد أكون مستعدة لإنزال ألم الفشل بنفسي لكي أُدخِل السكينة على علاقتنا. معتقدة، بشكلٍ خاطئ، أنني هكذا أستطيع أنْ أجعل كلاً منا سعيداً.

إنَّ حبّه لي، بالنسبة إليه، هو شغف لا صِلة له بمميزاتي.

إنني أتعلَّم ببطء أنّه يُحبّني لأسبابٍ تختلف عن أسباب حبّي له.

أشعر بالسرور لإنجازاته، وبالإحباط عندما لا يتخذ أيّة خطوة. ومع ذلك، في أعماقي، أعي أنني بصورة ما أتوقع أنْ يكون بحثي عن هدف يشبه بحثه، وأنْ تكون تحركاتي تشبه تحركاته. وكأنَّ لي الحق في أنْ أطلب منه اتّخاذ خطوة عمليّة للتصديق على *خياراتي*.

يدور فيلمي حول رجل عجوز، زوجته في مؤسسة لمعالجة أمراض الشيخوخة؛ والشيخوخة، المُخيفة والموحشة أكثر من الموت بكثير، ومُعاناة الهرم وفقدان الوعي، هي خاتمة مريرة إذا بلغها المرء عبر الشفقة.

أريد أنْ أحكي حكاية عن رجل عجوز هو حارس الحب.

أصل إلى الاستديو في تورنتو، يحدوني الأمل في أنْ يُعلّمني عملي نفسه كيف أؤديه، وأفكر في أنني إذا تخلّيت عن مسألة الإخراج تماماً، فلن أعرف إنْ كنتُ أُحسِن القيام به. وبينما أتظاهر بأنّني مفعمة بالثقة بالنفس، أشعر بأنَّ الجميع ينظرون إليّ بشكّ. ومع ذلك، حثّني قابيل على أنْ أظهر بمظهر الواثقة الكبرى بنفسها في أثناء قيامي بعملي، حتى وإنْ كنتُ أرتعش في داخلي؛ وبهذا، على الرغم من أنّه لا يوجد أي شيء في صباح هذا اليوم الأول أعتقد أنني أستطيع أنْ أؤديه فإنني مُقتنعة بأنني أُمسك بقوة بزمام كل شيء. وأعلم، وهذا عاديّ، أنَّ كل خبرتي التقنيّة خلال خمسة وعشرين عاماً من التمثيل تشير إلى الخيارات والأجوبة في هذا الفرع الجديد من صناعة السينما.

سرعان ما أبدأ بتمني لو كنتُ مسؤولة عن الفيلم برمّته، عن أجزائه كلها، الزاخرة بإمكانات الإخراج، وأدرك أنني سوف أشتاق إلى صناعة الأفلام إذا اضطررت إلى العيش من دونها، لكنَّ هذا فقط من باب الافتراض، حتى الآن، وأستطيع أنْ تكون لي خياراتي الخاصة، ومقدرتي المُكتشفة حديثاً على التعبير عن الصرامة بدل التهذيب الذي يُزوّدني بالقوة التي لم أعبِّر عنها لفظيّاً من قبل.

أقول لقابيل عبر الهاتف، «يجب أنْ يأخذوا حذرهم. الآن سوف أنتقم على كل إحساس بالإحباط انتابني في عملي كممثّلة، وأعوِّض عن عدم ممارسة الإخراج طوال كل تلك السنين»

يطلب مني أنْ أعود إليه بسرعة. «وأرجـوك، احذري! بدأتِ تبدين كإحدى المناديات بحقوق المرأة»

بطل الفيلم، تشارلز جيفري، في السبعين من العمر، ممثل وشخص جميل، مُدرّس متقاعد لمادة الدراما في مرحلة الدراسة الثانويّة، وصاحب ابتسامة عذبة كصباح ربيعيّ. وجهه مُجعَّد وشعره شائب وخفيف يتدلى على جبين مكشوف. ينضح ببراءة تنتابنا نحن المُشاهدين رغبة مُفاجئة بحمايتها.

يقول بسعادة «كان يجب أن أنتظر إلى أنْ أُصبح عجوزاً لكي أقوم بأول مشهد وأنا عار»، ويقف في وضعيّة الانحناء وهو عار في انتظار أداء مشهد السباحة.

***

فيلمي، الذي يحمل عنوان «*الفراق*» تجري أحداثه خلال فترة صباح يوم من حياة رجل عجوز.

يستيقظ ببطء على السرير المزدوج، تلوّن وجهه لمسة خفيفة من ضوء الشمس المُشرقة، عندما يستدير نحو النافذة مع تنهيد بلا صوت. وبعد مرور فترة طويلة يضع قدمه العارية بعناية على الأرض. وفي حوض الاستحمام الضخم لا يظهر من الحافة إلّا رأسه الصغير الرصين، وتتسبَّب الحرارة بظهور حبيبات كاللؤلؤ على صدغه، وهو جالس هناك لا يند عنه أي صوت، غارقاً في التفكير. يتناول وجبة الإفطار المؤلَّفة من الخبز المُحمَّص والشاي – طاولة المطبخ مُعدَّة بشكل جميل – بينما تقفز قطّة إلى حجره برهة، مُشوّشةً عزلته قبل أنْ تقفز مبتعدة عندما يمدّ يده ليلمسها.

يُعدُّ سلّة النزهات بيدين ترتعشان: يصبُّ المرَق الذي طُبِخ بعناية في الترموس، مُريقاً بعضاً منه. ثم يضع فيها عصير برتقال طازجاً عُصِرَ حديثاً، بالإضافة إلى مفرش طاولة مطبوع بمربعات حمراء، طويَ بأناقة. وأخيراً، يُضيف زجاجة ملأها بماء الحنفيّة.

يتمشّى في المكان، يعيد وضع هذا الغرض أو ذاك، في حين يحدث تغيّر ما. يُصبح الترقّب جزءاً من حركاته ومن تعبير وجهه: العجوز لديه سرّ. نراه في طقوس استعداده للذهاب إلى موعده. وجه ممتلئ ومُحدَّد ببعض الانفعال. هناك حماس ينبعث من أعماقه.

ثم نراه في الشارع، ونسمع ضحك أطفال عن بُعد. الناس يندفعون مارّين به ولا أحد ينظر إلى العجوز ذي الظهر المنحني قليلاً المُسرِع كثيراً في سيره، كأنّ أمامه إنجاز عمل هام. ويدخل بخُطى حثيثة بوابة مبنى ضخم، رمادي. ويتقدم على طول أروقة لا نهاية لها، ويُحدِّق إلى ممرضات بملابس بيضاء، لا يسمح لهنَّ بتأخيره بأيّة وسيلة. وأخيراً، يتوقف أمام باب، دهانه يتقشَّر، وعندما يفتحه – **يبتسم**! ويا لها من ابتسامة واسعة! ويرتسم على وجهه تعبير عاشق. ويملأ رجلٌ عجوزٌ غرفةً مملّةً في مستشفى بالإشراق.

ها هي!

قبل زمن بعيد، غابت زوجته داخل حُلم. ومنذ ذلك الحين وهي مستلقية هادئة ولا تندّ عنها أيّة حركة، فقط تُحدِّق إلى الجدار أمامها. أما الآن فيصل فارسها المغوار، ويدخل قلعتها مع سلّة ممتلئة بالهدايا، غامراً الغرفة بكل الحب الذي تقاسماه، محيطاً سريرها بالحنان.

بما أنّه لا يوجد حوار، وبالتالي لا ميكروفونات، أستطيع أنْ أعطي توجيهاتي بينما آلة التصوير تصوِّر:

«... رتِّبْ وضعيّة الوسادة، يا تشارلز. والآن الفوطة. انظر إلى يديها، ألا تبدوان باردتين ومضطربتين؟ والآن ابدأ بإطعامها الحساء بملعقة أحضرتَها معك... يدك ترتعش، يا تشارلز، أليس كذلك؟ تريق الحساء على الغطاء. أوه، أنت مُرتبك... ما أصعب هذا على شخص في مثل سنك... تحسّسه، انظر إليها. هل وجنتاها تتوردان؟... حاوِلْ أنْ تدفعها إلى تناول مقدار ملء ملعقة أخرى... لا ترغب... هي دائماً عنيدة، أليس كذلك؟...»

راقب الرجل العجوز يُدلّك يديها الساكنتين المُستقرتين على غطاء

السرير. انظر كيف يضع نظارته ويُخرِج نسختهما القديمة، المتهرِّئة، من الكتاب المقدَّس. أصغ إليه بعد أنْ يبدأ بالكلام أخيراً. من وسط الظلام الدامس الذي يغمر نهارها، ينساب إليها صوته رقيقاً[1]:

«إنْ كنتُ أتكلَّم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبّة فقد صرتُ نحاساً يطنّ أو صنجاً يرنّ.

«وإنْ كانتْ لي نبوّة وأعلمُ جميع الأسرار وكل عِلم وإنْ كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لي محبّة فلستُ شيئاً.

«وإنْ أطعمتُ كل أموالي وإنْ سلَّمتُ جسدي حتى أحترق ولكن ليس لي محبّة فلا أنفعُ شيئاً»

على عتبة النافذة أصيص صغير ينمو فيه نبات. يرشّه بعناية برذاذ من الماء من زجاجة جلبها معه.

تلمس يده وجهها بحنان – بل بحنانٍ فائق – يُخلّصها من عزلتها.

ما أجمل هذه اليد الحانية.

ومن ثم يُغادر. ومن جديد، نرى رجلاً عجوزاً ضئيلاً يمشي بين الناس المارين به مندفعين ولا يرونه.

يغيب عند المنعطف ويبقى الشارع خالياً.

1- المُقتطَف التالي مأخوذ من الإنجيل: رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس. الإصحاح 13. – المترجم

ذكرى. جدّتي جالسة على أريكة. على حجرها تجلس فتاة صغيرة، أنا. تغنّي. تتحدث عن طفولتها. رائحتها ذكيّة.

تحكي لي عن كلب كانت تحبّه ومات، وكيف أنَّ موته لم يعُد يوقظ وجع الحزن الذي كانت تشعر به. وتخبرني بأسف أنَّ الزمن كفيل بشفائنا، وبمحو الألم والحزن.

أتساءل لماذا يجعلها هذا حزينة.

أيدٍ رقيقة تداعب شخصين عجوزين نحيلين. ومن ثم تتذكَّر جدتي يوماً بعينه من أيام الربيع، وهي في الرابعة عشرة من العمر عندما ركضتْ في المتنزّه بأعشابه الخضراء النضرة. كانت هناك أزهار المرغريتا وزهرة واحدة صفراء مُبهرة نسيَتْ اسمها. وطار طائر شحرور بصمت أمامها، كان يختبئ بين الأعشاب. وسمعتْ أصواتاً غريبة، صوت غراب حاول أنْ يُغرد – وأحياناً كان ينجح في ذلك. وسار البط بألوانه المختلفة كالسكارى من البشر بجوار بركة. وبالقرب من درب موحشة كثيراً قابلتْ أرنباً. وتحدثا.

أنا جالسة على حِجرها، الشديد الدفء والآمن. وبينما تعانقني ذراعان عجوزان، أرى جمال طفولة أخرى قبل سنين عديدة وأشعر بها تجلب الدموع إلى عينيّ.

أتساءل لماذا يجعلني هذا حزينة.

تُقبّلني وتقول إنَّ الدموع هي حبات من اللؤلؤ تختبئ في العيون. وكالمعجزة، عندما تظهر تُحرّر كل ما يؤلِم في عمق الأعماق حيث يتعايش كل الحزن وكل السعادة بوئام.

لاحقاً، في غسق المساء، أتمدَّد على الفراش على الأرض، الذي لطالما كان سريري وأنا هناك. ركني الخاصّ من الغرفة شبه مُظلم. والصورة التي أحملها في ذهني لها موجودة داخل إطار من كرسيَّين صغيرين من الخشب المدهون. وأشعر كأنَّ لديّ منزلاً صغيراً خاصاً بي وحدي.

وسط هذه السكينة يكاد النوم يغلبني.

تشكّل قوائم الكرسي المعقوفة ما يشبه فتحة آلة تشيللو، ومن خلال تلك الفتحة أرى كامل مساحة الغرفة من زاويتي. وعند الطرف النائي من النافذة، المُظلَّل بستائر حمراء، أرى جدّتي تخلع ملابسها، يُضيئها نور مصباحٍ تُزيِّن حاملة أزهار، يشعّ عليها وعلى غطاء سريرها الذهبيّ.

ترفع ثوبها الصوفيّ، وهذه الحركة مؤلمة جداً لأنَّ ظهرها مُصاب وذراعها اليمنى معقوفة. وترفع ثوباً آخر من الحرير بلون وردي باهت يكشف عن سروال داخليّ طويل وبلا لون، وعن جوربها، الذي لا يتلاءم مع ساقيها. ويستغرق منها فكّ مشابك مشدّها وقتاً طويلاً.

أخيراً تقف هناك عارية تحت وهج الضوء، وتتنهّد عندما ترفع غطاء السرير. ولا تنظر نحوي أبداً، مُعتقدة أنني مُستغرقة في النوم. ومن خلال آلة التشيللو السحريّة أراها، وقلبي ينبض بقوة بالانفعال. ولا تسمع شيئاً.

تنحل جدائلها بصعوبة، ويبدو شعرها خفيفاً ومختلفاً على ظهرها الشاحب، المنحني. الجسم المُجعّد يُغطيه رداء النوم - إنها لمحة للمرأة التي لم أرها قط.

عندما تتمدد تطلقُ تنهيداً أخرس آخر، أطول من الأول، ثم تتقلَّب بصعوبة على سريرها وتتنهد من جديد.

ولا تعلم أبداً كم هي محبوبة في اللحظة التي أراها فيها تمدّ يدها نحو الضوء لكي تمنح كامل الغرفة الظلامَ الشامل.

رئيسنا دوك، الموجود في
المتحف الوطني إلى الأبد،
فليتقدّس اسمك.
فلتكن مشيئتك في
بورت – أو – برانس كما
في بروفانس.

أعطنا هذا اليوم ليكون
هاييتي الخاصة بنا ولا تغفر
للمتعدّين من
أعداء الوطن الذين يبصقون يوميّاً
على بلدنا.

قُدْهم نحو الغواية،
وبعد أنْ يتسمّموا بحقدهم
سلِّمهم للشر.

– هذه صلاة مدرسيّة عرِضَتْ عليّ بوصفها بديلاً عن صلاة الرب من أجل الرئيس «بابا دوك» دوفالييه بعد أنْ حرمه الفاتيكان كنسيّاً في عام 1961.

أصل إلى بورت - أو - برانس، عاصمة هاييتي، في صباح يوم أحد. وحسب ما ألاحظ لا أجد هناك أي ضيف آخر في الفندق الذي أنزل فيه. يرحّب مدير الفندق بي بابتسامة واسعة، ويكاد يدفعني دفعاً على طول الأروقة ثم إلى داخل غرفتي وهو يحثّني على قراءة الكراسة التي يُقدّمها إليّ:

- هاييتي الجميلة. في كل يوم سوف يتمّ تنظيف البركة ومن ثم تُنثر عليها أزهار الخبّيزة. وفي كل مساء تُضاء من تحت المياه لمَنْ يرغب في السباحة تحت ضوء القمر. وفي كل يوم يُغدقك المدير بعبارات المديح، ويوضع في ثلّاجتك وعاء كبير من الفاكهة الاستوائيّة، وسوف نقدم لك على مسطبتك وجبة إفطار لذيذة. وليلاً، سوف ترقص تحت النجوم، بعد أنْ تتناول وجبة العشاء من مائدتنا المفتوحة المعروفة عالميّاً. وهناك تزلج على الماء. وركوب مراكب شراعيّة. وسباحة. وسباحة تحت سطح الماء. أو يمكنك أنْ تكتفي بالاسترخاء واستقبال الشمس.

لأنَّ هذا هو معنى الحياة في هاييتي الرائعة.

أتلفّتُ حولي في الغرفة المُزيّنة بالزخارف، مع شمعدان على الطاولة المجاورة للسرير. وهناك سحالي خضراء تركض على طول الجدران المُبيَّضة بماء الكلس.

على مسافة قريبة في الشارع أجد حقيقة هاييتي المختلفة.

الشوارع ممتلئة بالقمامة، وبالمتسولين، والباعة الجوالين، والعاهرات. الفقراء يعجّون في شقوق مركز المدينة.

فقط بضع مئات من السكان الأثرياء لديهم نظام صرف، وأُصاب بالرعب وأنا أراقب الفقراء يغتسلون بمياه الصرف التي تلفظها القصور: رجال ونساء وأطفال يجلسون القرفصاء بجوار المجرور يُحاولون أنْ يغتسلوا بقذارة الآخرين.

إنْ كانت لديك مياه جارية هنا وبركة سباحة، فإنك تدفع حوالي ثمانية دولارات شهرياً مقابل تلك الرفاهيّة. في حين أنَّ الذين لا يملكون أيّ شيء يدفعون ستة سنتات مقابل خمسة عشر ليتراً من المياه الملوّثة التي تُباع في الشوارع.

الأجر الرسمي الأدنى في البلد هو دولاران وخمسة وسبعون سنتاً في اليوم. لكنْ معظم الفقراء الذين أقابلهم، إنْ كانوا يكسبون أي شيء أصلاً، فإنهم يتلقون من دولارين إلى دولار ونصف في اليوم. فإذا اعتبرنا أنَّ الأجر الأدنى اليوميّ هو دولاران وخمسة وسبعون سنتاً، فإنّ ليتراً واحداً من الحليب يكلِّف ربعه، ودزينة من البيض نصفه، ورطلاً من اللحم ثلثه.

في أثناء التجوال بالسيارة في شوارع بورت-أو-برانس، أشاهد رايات كبيرة تبيِّن «فلسفة» بابا دوك والطفل دوك، مُزيّنة بشكلٍ استثنائي وجميل بأحرف من ذهب والعديد من الألوان. وبما أنَّ نسبة الأميّة مرتفعة، فإنَّ معظم أفراد الشعب لا يستطيعون قراءة تلك الرسائل، ولكن عندما يمرُّ موكب الرئيس وأسطوله من السيارات، يخرّ الفقراء على رُكبهم راكعين تبجيلاً له.

إنَّ نسبة تسعين بالمئة من القِوى العاملة في القِطاع الصناعيّ هي من النساء. والمرأة تنال أجراً أقلّ من أجر الرجال ولا يُتوقع منهنّ أنْ يُنظّمن صفوفهن وممنوع عليهن الخروج في مظاهرة.

في المدينة لا توجد مراحيض عامة. وهناك ست شاحنات تجمع القمامة، والنفايات تُنقَل مسافة أربعين ميلاً خارج المدينة. وهذا يحدث فقط عند توفّر الوقود، وغالباً لا يتوفّر.

في بورت-أو-برانس، مئتا شخص من أصل ألف يموتون من قِلّة الطعام.

الأمهات لا يرضعن أطفالهن الضعفاء من أثدائهن. وقد علِمن من مصدرٍ يعتبرنه موثوقاً أنَّ بديل الحليب أفضل للأطفال، لأنَّ الحليب المُجفَّف غالي الثمن، والذي لا يستطعن تحمّل تكاليفه، يُمزَج بالماء الملوّث، غير المغلي.

في ضواحي المدينة، أرى نُصُباً تذكاريّة جميلة للموتى، وقبوراً لا حصر لها، أشبه بقلاع مُزخرفة صغيرة. والعادة هنا هي وجوب دفن الميِّت بكل أناقة: «على الرغم من أنَّ علينا أنْ نعيش حياة فاقة على الأرض، فإننا نريد أنْ نعيش حياة مُرفّهة في الموت»

دعتني أختان إلى زيارة الكوخ الصغير الذي تتقاسمانه. بدونا في العمر نفسه. والأخت الأشدّ حياءً من الأخرى تغيِّر قميصها وترتدي ثوباً من القطن عليه رسوم أزهار زرقاء فوق بنطلونها المُمزّق. وأشارت إلى أختها لكي تفعل الشيء نفسه، لكنّها تجاهلتها. وأقف أنا بجوار الباب، بما أنّه لا يوجد حيِّز أجلس فيه، ولا حتى على غطاء، لكنّي أشعر بالترحيب في هذه الغرفة الخالية من قطع الأثاث. وذات يوم كان لديهما سرير، ولكن بما أنهما لم تتمكنا من العثور على فراش، استخدمتا السرير كوقود: «نحن نكسب بعض المال من إعداد الطعام للناس في هذه المنطقة، وهذا أرخص بالنسبة إليهم من شراء الوقود»

تلاحظ الأختان اضطرابي وتضحكان: «ليس من عادتك أنْ تفكري في تناول الطعام في الخارج من أجل الفقراء، أليس كذلك؟

«ولكن إذا كنت لا تستطيعين العثور على أي مقدار من الفحم أو الكيروسين أو الخشب، فإنك تستطيعين أنْ تحصلي على طعام مطبوخ في بيتنا مقابل مبلغ بسيط من المال. لأنَّ بابنا مفتوح من أجل العديد من العائلات»

خارج بيتهما هناك أمٌ تغسل طفلها الرضيع، وثمة فتى وفتاة منهمكان في إجراء مقارنة بين أيديهما، ورجل يقوم بصبر بتخليص كلبه من القمل.

الفتاة تكتفي بالوقوف. تبدو في حوالي سن الخامسة عشرة، تتكئ بكل ثقلها على عكّازٍ بدائيّ، وتتسوّل. ساقها اليُسرى مُشوّهة بصورة فظيعة، تقف في وجه الهواء، ملويّة – والجزء البارز منها يتجه نحو الأعلى. إنها مثال للحرمان. أشعر بالاضطراب أمام مظهرها. حزنها ملموس بشكلٍ ملحوظ – تقف هناك صامتة وسط المشهد العام.

عندما تتكلَّم تقوم الاختان بترجمة حكايتها لي:

«ذات مرّة توسّلت إلى أحد الأطباء أنْ يقطع ساقي. فسألني إنْ كنتُ أملك المال اللازم وعندما قلت كلا طلب مني أنْ أرحل. لا أستطيع أنْ أجد أحداً يُريحني من ساقي»

إنَّ وجه الفتاة الناعم الجميل يتعارض مع جسمها المُعاق، والعضو المُشوَّه. نبرة صوتها واضحة وصافية كجريان الماء.

إنها لم ترتَدْ أية مدرسة، ولم تعثر على أي عمل تقوم به. ولا تعتقد أنَّ لها عائلة.

«لو لم تكن لديّ مثل هذه الساق، لكانت حياتي أفضل»

لم يكن لديها مأوى، ولا أمتعة، ولا تعرف كم يبلغ عمرها. لكنّها تعرف اسمها:

تشاريتي. (إحسان)

***

في الحال تمثّلتْ أمامي صورة الرجل العجوز الذي في فيلمي وهو يقرأ من الكتاب المقدَّس على مسمع من زوجته. الصدى - الكلمات التي اخترتها له لكي يقولها قبل بضعة أشهر كانت كما يلي:

«وأنا طفل، تكلَّمتُ كطفل: ولكن عندما أصبحتُ رجلاً بالغاً، تخلّيتُ عن الأشياء الصِبيانيّة.

«الآن نرى من خلال زجاج، بشكلٍ مُبهَم؛ ومن ثم نتقابل وجهاً لوجه. والآن صرتُ أعلم جزئيّاً، ولكن بعد ذلك سوف أعلم كما أنني معلوم.

«والآن يبقى الإيمان، والأمل، والإحسان، هذه الأشياء الثلاثة ؛ لكنَّ أعظمها هو الإحسان»

الوقت بعد الظهيرة والجو دافئ جداً. على الشرفة القديمة حيث نجلس، وحده الناموس يبدو مشحوناً بالطاقة، ويكتنفنا بطنينه الرتيب.

يُخاطبني رجل نحيل وطويل القامة في أواخر ستينيات عمره، يرتدي ملابس رسمية جداً مؤلّفة من بذلة من الفانلا الرمادية، على الرغم من الحرارة المرتفعة. إنّه زعيم اجتماعي عيَّن نفسه بنفسه على منطقة فون باريزيين[1]، واجتمع حوله رجال من المنطقة:

«في عام 1947 عندما كانت هذه المنطقة صحراء، قرّرتْ حكومتنا أنْ تبني شبكة توزيع مياه من أجل ريّ المنطقة. وبفضل المياه، تمكّنا من زرع الذرة، والبقوليات، وخضروات أخرى. ليس فقط من أجل أنفسنا، بل من أجل التجمعات السكنيّة المجاورة أيضاً»

بينما العجوز يتكلّم كان يزن كل كلمة. وعندما يُلاحظ أنني أدوِّن بعض الملاحظات يتوقف بعد كل جملة ليتيقّن من أنني انتهيت من التدوين ثم يُصدر صوت استحسان ويستأنف الكلام.

«ولكن في عام 1954 دمَّر إعصار هيزل شبكة توزيع المياه. – » ويمسح رأسه. الحرّ يزعجه لكنّه يتجاهل الناموس.

«لم ينجح المزارعون قط في إصلاح شبكة الريّ لأنّه لم تكن لدينا معدّات ولا معرفة تقنيّة. ثم منحتنا الوكالة الهاييتيّة – الألمانيّة قرضاً من أجل شراء مضخّة مياه. وبعد ذلك بأربعة أعوام رُكِّبَتْ مضخّة ثانية. وبعد

1– منطقة فون باريزيين: منطقة في هاييتي تعاني من شحّ في المياه.

ذلك صرنا نأمل في زراعة البقوليات والبندورة من جديد. لكنّنا قدَّرنا أننا نحتاج إلى ريّ التربة بعد زراعة الخضروات، وكانت تكلفة الري تقترب من أربعة دولارات للساعة الواحدة، وبدأت المضختان تتعطلان. ولم نتمكن من إجراء الإصلاحات في قريتنا، واضطررنا إلى جلب عامل ميكانيك من العاصمة على بُعد أميال عديدة. ومع ارتفاع أسعار البترول، أصبح الريّ مُكلفاً أكثر بكثير.

للمرّة الأولى يُحاول أنْ يضرب حشرة ناموس استقرَّتْ على عنقه. ويُخطئ.

«اليوم نحن لا نؤمن بأنَّنا سوف نتمكّن من استخدام المضخات» ويسكت فترة طويلة. أُدركُ أنّه يُريد لأهميّة ما يوشك أنْ يقول أنْ يُقال بعد فترة من الصمت. ونتقاسم برهة حزن على سوء حظ المزارعين في الحياة. ثم يستأنف الكلام:

«إنَّ المزارعين هنا متعَبون جداً ولا يعلمون ماذا ينبغي أنْ يفعلوا. إنَّ تسعين في المئة منا كاثوليك، لكننا لم نتمكَّن من إنشاء كنيستنا، ولا نستطيع أنْ نحتفل بعطلة الكنيسة القادمة لأننا لا نستطيع أنْ نزرع بقولنا»

ينهض زعيم مجموعة فون باريزيين ببطء، ويقترب مني، ويمدّ يداً جافة، ومُجعّدة، ويُمسك بكلتَي يديّ قليلاً وهو ينظر برصانة في عينيّ. ثم يعود إلى كرسيه.

«أتمنى أنْ تسهم زيارتكِ لنا في حلّ مشكلتنا»

كيف أشرح له أنّه على الرغم من أنَّ إعصاراً يُدعى هيزل استطاع أنْ يُعطل زراعتهم، فإنَّه من المُستبعَد أنْ تشكّل زيارة عارضة من كائن بشريّ فرقاً في حياتهم؟

يُخرج دفتراً صغيراً أسود من جيبه ويباشر بالقراءة بصوت مرتفع منه وبصوتٍ جادّ أكثر من أي وقت مضى:

«خلال السنوات الممتدة بين عاميّ 1954 و1960 كان الجميع يشربون الحليب في الصباح، ويأكلون الفاصولياء الحمراء على الغداء، ويأكلون العصيدة على العشاء. واليوم، الناس الأشدّ ثراءً يستطيعون أنْ يأكلوا مرّتين

في اليوم، على الرغم من أنَّ عددهم لا يتجاوز بضع عائلات. والفقراء حقاً، إذا حالفهم الحظ، يستطيعون أنْ يأكلوا وجبة واحدة في اليوم. ونحن لا نعلم أنَّ هذا سيكون الوضع بين ليلة وضحاها.

أنا جالسة في سيارة الجيب، أوشك أنْ أغادر فون باريزيين. ثمة فتاة شابة تقف منعزلة قليلاً عن الحشد. وعندما ألتفتُ وتلتقي عيوننا إذا بها تُشير بحركة بطيئة جداً وبهدوء إلى بطنها.

أعلمُ أنّه ليس في استطاعتي أنْ أترجّل من السيارة الآن وأعطيها بعض المال. هناك الكثير جداً من التعساء والمُحبطين من الناس يُراقبون – ينتظرون مثلها. فماذا أفعل؟ ما هو الخيار؟

أُشيح ببصري بعيداً.

سيدة طاعنة في السن في مخيَّم للاجئين في إفريقيا تحمل في حجرها كمية صغيرة من الجوز الجافّ. أجلسُ إلى جوارها وأراقبها تعطي من نصيبها إلى صبي صغير. ترفع نظرها إليّ، ومن دون أنْ تنطق بأيّة كلمة تُقشِّر جوزة وتضعها في فمي.

في أثناء جولتنا في مستشفاها المُخصَّص للفقراء، تريد مني أنْ ألبس رداءً فضفاضاً فوق ثوبي. إنه اليوم الأخير لي في البلد الذي يترأسه زوجها إلى الأبد.

مئزري أصفر اللون وجميل جداً، ومئزرها قرنفليّ اللون. وهذا المبنى هو أشدّ ما شاهدت نظافة في هاييتي؛ الأرضيات تلمع، وكل غرفة متناسقة الألوان في الأثاث والأغطية. في قسم الأطفال، تنتظر الدُمى الصغيرة في كل مهد، وعلى الجدران عُلِّقَتْ صور لأزهار وعصافير وفراشات. الستائر متناسقة مع أغطية الأسرَّة. والمختبرات تضم المعدات التقنيّة الأحدث وهناك أدوات عمل جميلة وباهظة الثمن.

لكنّ هذا القسم لا يضمّ أي مرضى، ما عدا عدداً من الأطفال الرضَّع. وأسألها عن السبب.

سيدة هاييتي الأولى تقول:

«لسوء الحظ، لم نعثر بعد على الحالات الصحيحة»

في الخارج، يمرّ بي خمسة من الرجال، يجرّون، كالأحصنة، عربة خيل ضخمة مُحمّلة عن آخرها بالخشب. إنهم يتصببون بالعرق ويبدو عليهم الوهن وسط الحرّ الفظيع.

أفضل أجر ينالونه في اليوم الواحد هو دولار واحد.

في بقايا كوخ صغير يعيش رجلٌ عجوز. كتب أحدهم على بابه عبارة: «إنَّ ثروة الإنسان في المقام الأول صحّته ومن ثم يأتي عمله»

لو أنَّه يُبصِر، لاستطاع أنْ يُبدي إعجابه بالمستشفى التي غادرتها تواً، حيث الممرضات بزيّهم الرسمي والأطباء ينتظرون مجيء الحالات المَرَضيّة الصحيحة. سريره مُغطّى بشبكة والمرأة التي تأخذني إليه تقول إنَّ الجيران يريدون منه أنْ يرحل. فالرائحة المنبعثة كريهة وأسراب الذباب الكثيفة تُحيط به. رأسه، ذو الحجم الغريب، مُغطّى جزئيّاً بخرقة، أعتقد أنَّ الغرض منها حمايته من أشعة الشمس الحارقة. ثم ترفع المرأة الخرقة أرى وجهه تعلوه الزرقة جرّاء إصابته بنوع من السرطان. كانت الديدان تتغلغل فيه، ديدان تحاول أنْ تزيلها في صباح كل يوم.

اسمع صوتاً خائفاً صادراً عن جسد عجوز نحيل، ما زال حيّاً، يهتف طالباً الرحمة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لقد سافرتُ حتى الآن طويلاً، وأنا عازمة على مواصلة السفر.

كم أحبّ الطرق المختلفة التي يلمس بها الغرباء بشرتي، والأصوات الجديدة كلها، تلك التي تُداعب أنفاسها الدافئة أُذني وأنا أستمع إلى فقرات من حياة ما.

إنني بعيدة عن عائلتي وأصدقائي، ولا أشعر ولا للحظة واحدة بالوحدة. لكنّني قد أكون، بصورة غريبة، أقرب إليهم مما أُصبح بعد أنْ أعود إلى أرض الوطن ولا أعلم كيف أنقل التجارب التي مررتُ بها.

أجد نفسي أنظر إلى صور الأطفال التي تُذكّرني وجوههم الضاحكة، المُخلَّدة في صورة، بالثقة المُطلقة، وإلى النسوة المُجمّدات في حديث غاضب أو انفعال رقيق على شريطي السينمائيّ، نسوة يدفعنني إلى الوعد بتذكّرهن.

أريد أنْ أتمسّك بهم، وأخشى أنَّ السِمة العاديّة لحياتي سوف تمحو صورهم.

تُخبرني جدّتي عن كلب كانت تحبّه ومات، وكيف أنَّ موته لم يعُد يُثير فيها وخز الحزن الذي كانت تشعر به سابقاً؛ تُخبرني مع نبرة ندم أنَّ الزمن كفيل بتقديم الشفاء، وسوف يمحو الألم والحزن.

أتعجب لِمَ يجعلها هذا حزينة.

لا أريد أنْ أعود إلى عاداتي الرتيبة القديمة كلها، وأنا أرفض أدواراً تمثيليّة، مُدَّعية لنفسي أنني لا أشعر بأي حافز. في حين أنَّ الحقيقة هي أنني أخشى أنْ أفقد الحسّ بالواقع وبالعطف الذي أيقظه أناسٌ قد لا أراهم من جديد فيّ.

وحدها لين تمثّل جسراً يصِل بين التجارب الجديدة وحياتي في أرض الوطن. إنَّ آلامها ومسراتها تسمح لي، بطريق غريبة، بالتمسّك بأسفاري أيضاً. وعندما أنظر إلى جسمها النحيل الجميل يتنقّل هنا وهناك توّاقة إلى بلوغ مرحلة الأنوثة – عيناها، تارة تومضان، وتارة أخرى تفيضان بدموع تنم عن ضيق صدر، وعناقها المُفاجئ لي واعترافاتها، وروحها الجديدة الرائعة – عندما أراقب ذلك كلّه، أُدرك أنها هي أيضاً تُثير فيّ حنيناً إلى الوطن.

إنني أشتاق إلى شبابي، إلى الزمن الذي كان كل شيء فيه ممكناً.

إنني أسافر ليس لإنجاز هدف معيَّن فقط، بل بحثاً عن طفولتي الضائعة أيضاً – عن الأيام التي كانت فيها الأحلام تتضافر مع الواقع.

– أفكّر في كل الخيارات التي لم أعرفها قط، وفي تلك التي اتّخذت بالنيابة عني – إرضاءً للحب، بدافع الخوف. أين تلاشت تلك الخيارات التي لم أقُم بها؟

كلها تشكل جزءاً من كياني. هي الإرث الذي تركتُه خلفي، واللوحة المكتملة لنفسي التي لا أستطيع أنْ أغيِّرها.

أقوم بزيارة أوشفيتز مع فريق العمل في الفيلم السينمائي الوثائقي الذي ننفِّذه عن الأطفال الذين نجوا من المِحرقة.

إحدى النسوة الحاضرات كانت ذات يوم طفلة صغيرة في ذلك المعسكر. حنّة ضئيلة الحجم، وجميلة، وتتصف بحياء شديد فيما يتعلَّق بإعطاء تفاصيل عن تحربتها على مدى سنين عديدة مضت:

تراقبُ بصمت أمّها وأباها وأخاها الصغير وهم يُنتزعون منها، ولا تهرع للّحاق بهم. ولاحقاً رأتْ أمها واقفة ضمن رتل في انتظار دورها في الموت. وقالتْ إنها لم تبك.

عندما كانت صغيرة جداً، أعطتها أمها ثوباً جميلاً من المخمل ملفوفاً على شكل هديّة. قالت أمها «أحبّ اللون الأزرق»، ورفعت الثوب الصيفيّ الأزرق أمامها.

***

في يوم صافٍ في أوشفيتز، تقوم آلة تصوير وفريق عمل الفيلم السينمائي باقتفاء الدرب القصير الذي سارت عليه الأم.

تسير متنقلة من موقع إلى آخر ويصعبُ كثيراً عليَّ، أنا المُحاوِر، أنْ أدفعها إلى الكلام.

تنتقل إلى المحرقة بأفرانها السوداء الضخمة، أما الآن فتعمّها البرودة.

ألبس السترة الصوفيّة، ولا تفعل هي أيّ شيء. تقف ساكنة، رأسها محنيّ نحو الأسفل إلى الأرضيّة الحجريّة، تبكي بلا صوت.

«في الحقيقة، أنا أيضاً أحبّ اللون الأزرق أكثر من أي لون»

أنا على متن طائرة متوجهة إلى أرض الوطن، تراودني ذكرى فتاة صغيرة يتيمة في خاو آي دانغ، أول مخيَّم للاجئين زرته. سارت على امتداد أيام طويلة بعدما شهدتْ اغتيال والديها على يدي بول بوت في كمبوديا. وأخيراً اجتازت الحدود وهي على شفا الموت ووصلت إلى هذا المكان. وعندما جلستْ إلى جواري، رفضَتْ أنْ تتكلَّم. طفلة صغيرة يغطيها الغبار في مخيم لا تتوفّر فيه إلّا أندر ضروريات البقاء على قيد الحياة. الجو شديد الحرارة. وفجأة، تفتح الطفلة فمها وتغني بصوت واضح وصاف للسماء - مُفعم بالاشتياق. طفلة تزحف يدها مترددة إلى يدي، وهي تغني شيئاً ربما كانت أمّها قد علَّمتها إياه.

- أحلّ أمتعتي. وبرفقتي لين.

«ماما، عندما تسافرين ينتابني الخوف، وأعتقد أنكِ لن تعودي أبداً، وأنك تحبين كل شخص آخر أكثر مما تحبينني. أما الآن عندما تسافرين فأتفهَّم الأمر بل ولا أشتاق إليك أحياناً. وذات يوم سوف أتوق إلى مرافقتك. هل أستطيع أنْ أرافقك؟»

لديّ ذكرى من عهد طفولة لين:

في يوم عيد مولد والدها الستين، بينما منزله ممتلئ بالأصدقاء والأقرياء، كانا معاً متوجهينْ إلى البحر يداً بيد. سألها والدها - ولم تكن قد تجاوزت التاسعة من العمر - عمّ ستفعل عندما تبلغ الستين من العمر. ففكّرتْ قليلاً ثم قالت، إنها ستفعل مثله وتحتفل، لكنها ستدعو فقط الأصدقاء - ولكن ليس الأقرباء. على الرغم من أنها كانت سترغب في دعوة أمّها، التي كانت ستأتي بوصفها ممثّلة سابقة، طاعنة في السن وسخيفة في حديثها.

نظر والدها إليها وقال: «ولكن ماذا عن والدك؟ لقد أتيتِ إليّ عندما بلغتُ الستين. هل ستدعينني أيضاً، بعد خمسين عاماً؟»

التفتت نحوه وسكتت - وطال سكوتها - ومن ثم ضحكتْ، بارتياح، وقالت: «أوه، بابا! سوف أُقيم حفلتي ومع اقتراب نهاية السهرة وبينما الجميع يرقصون ويشربون ويأكلون، سوف أخرج لأتمشّى وحدي إلى البحر وسوف تأتي إليّ مبتهجاً على متن الأمواج»

تسألني لين: «هل تحبّين قابيل؟»

«كان يُسعدني في الماضي. لقد ضحكنا معاً كثيراً. وأحياناً كان يؤلمني ومن دون أنْ يعلم. والآن أنا في الغالب غاضبة. هو يقول إنّه يشتاق إلى هشاشتي. ولا يفهم أنني فخورة بقوتي»

تقول لي ابنتي، «ذات مرة عشقت أحدهم. فطلب مني ألّا آكل إلّا خضروات. ثم كان يأخذني في مشاوير طويلة سيراً على القدمين. وعندما ننفرد بنفسينا كان يريد أنْ يُعرِّفني إلى العالم. لكنّه لم يفعل ذلك قط. وكنتُ أرغب كثيراً في أنْ يُمسك بيدي. كان في الثانية والعشرين ولم يعد يتّصل بي. أعتقد أنّي أحببته حبّاً جمّاً»

«عندما كنتُ في مثل سنك كنتُ أقضي ساعات طوالاً مع صديقتي نضع خططاً لحياتنا كلها، ونتقاسم أحلامنا، ونرغب في فعل أشياء كثيرة. لكن قبل كل شيء كنا نعيش أخيلة الحب»

«في أول مرة عشقتُ كنتِ لطيفة جداً معي. هو لم يُحبّني. كنتُ في الثانية عشرة وشعرتُ بأني منبوذة. قلتِ لي إنك تعلمين كم يؤلِم هذا، وقدّمتِ لي شاياً ساخناً، وجلستِ بجوار سريري.

« ذات مرة، وأنا في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، تسللتُ من المنزل ليلاً بينما كنتِ نائمة. ارتديتُ ثوبي الطويل، الجميل، وبالغتُ في وضع مساحيق التجميل واعتمرتُ قبعتي الكبيرة ذات الأزهار. ثم خرجتُ إلى الشارع. كنتُ أحبّ شارعنا كثيراً.

«لم يكن هناك أناس، ولا سيارات – فقط المنازل المُظلمة، التي يرين عليها الهدوء. ورحت أركض في أرجاء الشارع طولاً وعرضاً، أرفع ذراعيّ نحو السماء. وأخيراً، استلقيتُ على الأرض ومددتُ ذراعيّ، وانتابني ذلك الشعور الرائع بالحريّة. لم يكن هناك أحد يأمرني بما يتوجب فعله. كنتُ وحدي تماماً. تلك كانت أجمل ذكرياتي»

كانت في السادسة عشرة.

كم أحبّها. إنَّ مراقبتها تملأني بالندم لأنها قريباً لن تعود كما هي عليه اليوم، كما أتذكّرها بكل حنان.

كيف أشرح لها معنى الزمن وهي مازالت منغمسة تماماً في لحظة حزن أو في قبسٍ من السعادة؟

إنَّ الزمن مختلف جداً في حياتها عمّا هو في حياتي، حيث الزمن هو العمل واعتراف بالفنائيّة، والحاجة المُلحّة إلى الاحتفال قبل فوات الأوان.

الزمن – هو صور فوتوغرافيّة لأناسٍ كانوا ذات يوم يبدون مختلفين، هو نافذة مفتوحة على الفنائيّة.

الزمن – هو كل ما يفصل بيني الآن وما كنتُ عليه سابقاً.

أريد أنْ أسألها عن رائحة المحيط وما إذا كانت ترغب في أنْ تطير مع الطيور التي تقف على حافة نافذتها، وعمّا إذا كان مذاق ثمار العنبيّة يشيع فيها إحساساً بالأمان، وعن شعورها بالسماء المُرصّعة بالنجوم.

قبل وقت قريب كانت لا تزال طفلة.

عندما كانت لين في الثانية، جاء والدها في إحدى زياراته النادرة لنا.

وخرجا لكي يتمشيا في الثلوج العميقة.

كان الجو شديد البرودة وكانت ترتدي معطفها الشتويّ وحذاءها عالي الرقبة الجديد والدافئ.

سار الأب والابنة في صمت.

بعد مرور وقت طويل أحسَّ بأنَّ ابنة العامين نال منها التعب، فرفعها وحملها. نظر الاثنان أمامهما، جانب وجه أحدهما هو تصغير لحجم جانب الوجه الآخر، والثلج يضرب بشرتيهما. ولم يفُه أي منهما بكلمة.

وهكذا مضتْ فترة بعد الظهيرة.

حين زحف الغسق عليهما، سمعَ صوتها الرفيع للمرة الأولى. كانت لا تزال جالسة باستقامة على ذراعه، ووجهها يلتفت نحو الريح على غرار وجهه.

سمعها تقول: «جدّتي اشترتْ لي حذاءً جديداً طويل الرقبة»

حينئذٍ فقط أدرك ما أضاعتْ. شاهد قدمها العارية، والباردة حتى التجمّد.

لمحة عن امرأتين قبل ثلاثة أعوام داخل خيمة في كينيا: امرأة ضئيلة تنظر إلى ثديين أصغر من حبتَي بازلاء، والأخرى تراقب وفجأة تمتلئ بذكرى رقيقة عن أوقات مضتْ أملتْ خلالها في أن تحدث معجزة ليلاً وتستيقظ في الصباح لتجد أنَّ لديها ثديين مدوّرين، ناعمين.

اليوم، ولين في السادسة عشرة، هي في أبهى ازدهارها، وحلَّت المرأة محل الجسد النحيل. أصبح توهّج وجهها مختلفاً، واكتسبَ شَعرها لمعاناً جديداً كليّاً.

نعم، اليوم ينتابني عنصر حسد وأنا أراقب طفلتي: ذات يوم كان المستقبل كله ينتظرني أنا، والآن ينتظرها هي. كم هي مُميَّزة، ولا تعلم. أشعر بألم داخلي، بسبب عدم رغبتي في حرمانها من حقّها في مستقبلٍ وافر، لكنّي أتمنى مع ذلك، أتمنى لو أكون في مكانها.

أنا الآن أقف في المنتصف، أراقب الفتاة الصغيرة تنمو لتصبح امرأة. مشاهدة ذلك مُخيف إلى أقصى مدى وجميل.

أحياناً أتفاجأ – أو تفاجئني هي – بأني أحاول أنْ أقودها لكي تسير على خطاي، أحاول أنْ أنقذها من هواجس هي هواجسي.

كيف أتخيَّل أنَّ في استطاعتي أنْ أساعد أحداً في تجنب منعطفات الحياة الصعبة؟ كيف أُصدِّق أنها وأنا سوف نواجه الحياة نفسها؟ كيف يخطر في بالي أننا سوف نرغب في اتّخاذ قرارات مُشابهة؟

آه، انظري كيف يشقّ النهر طريقه بكبرياء، نهر طفولتي يُهرول إلى البحر.

آه، انظري كيف تتدفق المياه من منبعها وحتى قبل أنْ تعبر تعود على شكل مطر هاطل.

تُخبرني جدَّتي كيف أنَّ كل شيء يُسافر.

ويتبع الشيء الآخر، ويُصبح كل شيء في حالة سفر.

أنا جزء من هذه الحركة – كالتربة التي تتآكل من الجبال الجافة.

أتدفّق مع سيل من المياة تحت الأرض.

تقول لي السيدة العجوز «انظري إلى الأزهار النامية في حوض النهر. انظري كيف تشرب بنهم، وكيف تغتسل جذورها بالماء»

نهر طفولتي في طريقه إلى المحيط.

تقول جدّتي «إنّه نهر مُقدَّس»

وتحت ضوء الشمس يرتفع السيل نحو السماء.

«سوف يهبط قبل الغروب لكي يُزيِّن النباتات بحبّات الندى.

«آه، انظري إلى الحركة التي نحن جزء منها – النهر والأشجار والأزهار والطحالب وحتى أنا – كلنا مُقدّسون.»

وتهمسُ «انظري إلى النهر يتدفق في مجراه. إنَّ التدخّل في مجراه يعني التدخّل في مجرى الحياة»

يقول قابيل لي «يجب أنْ تمثّلي. ماذا تنتظرين؟ لا تنسي أنَّ مهنتك الحقيقيّة هي التمثيل المسرحي. فكيف ستعملين متحدثة باسم أطفالك المجهولين إذا اكتفيتِ بالجلوس هنا والشعور بالأسى عليهم؟ إنَّ موقعك هو خشبة المسرح»

لستُ متيقّنة من أنَّ هذا صحيح.

«فكّري في الأجيال القادمة»

« بصراحة، إنَّ الأجيال القادمة لم تفعل أيّ شيء من أجلي»

يسأل قابيل «إذن، ماذا تريدين من الحياة؟»

«ربما أريد أنْ أفهم الهدف منها، أو ربما أنْ أتحرَّر من أشباح الماضي، أو أنْ أكون في حالة حركة دائمة. وربما، يا قابيل، أنا شجرة سنديان إسكندنافيّة» يتأمّلني.

«ألم تسمع عنها، يا قابيل؟ كانت تنمو في أقصى الشمال عندما كان الجو لا يزال دافئاً هناك. وذات يوم تلقَّتْ بصورة ما رسالة مفادها أنَّ تغيّراً في المناخ سوف يطرأ، فبدأتْ ترحل. ومنذ ذلك الحين بدأتْ ثمار البلوط تنمو فقط على أحد جانبيّ الشجرة – الجانب الجنوبيّ – لأنَّ تلك كانت الجهة التي كانت تسير نحوها. وعندما تنمو كل شجرة، كان نموها يتجه جنوباً فقط. وبتلك الطريقة ظلت أشجار السنديان الإسكندنافيّة تسافر على امتداد ملايين السنين إلى أنْ استقرَّتْ أخيراً في إسبانيا»

يبتسم لي.

«إذن أنتِ الآن شجرة سنديان مُسافرة؟ انطلاقاً من أين؟ وإلى أين؟»

«لا أعلم، يا قابيل. إنني كتلك الأشجار، وصلتني بصورة ما رسالة»

سوف أوقّع عقوداً محدودة الأمد في مركز كينيدي، ولاحقاً، في برودواي، سأوقّع عقداً من أجل القيام بدور السيدة ألفينغ في مسرحية هنريك إبسن «***الأشباح***».

قبل أنْ تُقدَّم هذه المسرحيّة على أي خشبة مسرح، كتب إبسن لصديقه هيغل يقول: «قد تتسبَّب مسرحية «***الأشباح***» في إثارة الرعب بين بعض الأوساط. وإذا لم يحدث ذلك، فإنَّ تأليفها لم يكن له أي داعٍ»

آمل أنْ نتمكن من تقديم إخراجٍ لها جدير بأنْ يُثير رعب جمهور عام 1982 أيضاً»

قبل ذلك بعام وصلتني برقيّة وأنا في النرويج، تسألني إنْ كنتُ سأمثّل في مسرحيّة «***الأشباح***». ويبدو أنها الترجمة الإنكليزيّة لمسرحيّة «***عندما نستيقظ نحن الموتى***» عمل إبسن المُفضّل لديّ. أنا في السن المناسبة بالضبط للقيام بدور الشخصيّة الرئيسيّة، أيرين، وطوال سنوات عملي كمُمثّلة مسرحيّة كلها، لطالما تمنّيت أنْ أُجسِّد شخصيتها ذات يوم. وأرسل رداً على البرقيّة إلى الولايات المتحدة: «أحبّ أنْ أمثّل في مسرحية ***الأشباح***».

على مدى نصف عام قمت بقراءة تحفة إبسن الفنيّة الجميلة والاستعداد لها وهي تدور حول الفن والأحلام والموت. وذات يوم يسألني صديق: «ماذا يُسمّون هذه المسرحيّة بالإنكليزيّة؟»

«***الأشباح***»

«***الأشباح***؟ أوه، ليف – هذه مسرحيّة أخرى. هذه مسرحيّة السيدة ألفينغ»

وافقتُ على أداء دور امرأة أكبر مني بسنين عديدة. وأخيراً واجهت صعوبة في تعاملي كامرأة نرويجيّة حصراً مع العمل باللغة الإنكليزيّة.

أشعر بحرج شديد لتراجعي عن موافقتي.

مسرحيّة «***الأشباح***» تدور حول المخاوف - هي دراما عن أناسٍ لم يجرؤوا على العيش وفق خياراتهم الخاصة، بسبب تقيّدهم بالخضوع للتقاليد.

الدراما تحكي عن الشاب، أوزفالد، الذي يتوق إلى أشعة الشمس، إلى التحرُّر من أشباح الماضي؛ الفتى المولع بالفنون وبأيام العطل وبالحب لكنّه يخشى من أنَّ الاستمتاع بالحياة لن يكون من نصيبه أبداً، لأنَّ قوانين النظام التي وضعها المجتمع الراكد، أو «الأشباح»، تعمل على خنقه.

سوف أُجسّد شخصية أمّه، المرأة المُثقفة، التي بلغت أقصى مراحل حكمتها، خلال سنوات عزلتها، على الرغم من عدم جرأتها على الجهر بما فهمت، مُختبئة بدل ذلك خلف الأكاذيب، مختلقةً أشباحاً وهي تحاول أنْ تمحوها.

أعتقد أنَّ لديّ معرفة وخبرة سوف تؤتيان ثمارهما في تقديم هذا العرض.

بما أنَّ المسرحيّة سوف تُقدَّم بنسخة أميركيّة جديدة، طُلِبَ مني أنْ أقوم بترجمتها أدبيّاً إلى الإنكليزيّة عن الأصل النرويجيّ. وأمضيتُ معظم شهر كانون الأول من عام 1981 منهمكة في هذه المهمّة، ومستمتعة بها أيّما استمتاع.

العمل على إنجاز كتاب قابيل يتقدَّم ببطء. إنّه يكدّ أياماً من أجل إنجاز صفحة واحدة، ولكن عندما يقرأ على مسمعي أحياناً ما كتب، أتأثّر كثيراً. إنّه يرسم صوراً غاية في الجمال، على الرغم من امتلائها بالألم. ربما روحه الشغوف ستبقى دائماً تسعى وراء الألم، وتُنكر عليه إمكانيّة السعادة.

إننا نعمل في غرفة الجلوس. أحد جانبَي طاولة الكتابة الكبيرة التي نجتمع حولها يكتنفه الحزن - والجانب الآخر يواجه الأشباح.

أشعر بالمرأة التي نمت داخلي والتي سأؤدي دورها. أهمسُ كلماتها وأتخيّل أفكارها. فتدبّ فيها الحياة، مُضيئة، في غرفتها الحمراء حيث أجلس. كنتُ قد رأيتُ وجهها وهي واقفة تنتظر تغيُّر أضواء إشارة المرور. وجهاً شاحباً، حزيناً، خلف نافذة، يمثّل حياة ضائعة تلاشت داخل سيارة مارّة.

بينما أجلس على طاولة كتابة أترجم عمل إبسن الدراميّ، يغمرني سِحر مهنتي وإمكاناتها.

أقرأ عملاً دراميّاً عمره مئة عام، كُتِبَ بحنق وأسى، وأصبو إلى البدء بالتدريبات.

آمل أنْ نُبرِز علاقة رقيقة بين الأمّ وابنها بحيث إنها عندما تفقده وينتهي كل شيء، يُترَك الجمهور مُحطّماً بفعل صراعها المشبوب وهزيمتها.

تسمع تمنِّيه الموت، وتعانقه كعاشقة تحترق شوقاً. إنها أشبه بنهر يتدفَّق بأقصى عنفوانه.

إنَّها القوة المُقاومة لأولئك الذين يتحدون القدر: أمٌ تتحدّى الآلهة لإنقاذ طفلها.

ومن ثم تنقضّ الأشباح عليها كالوباء. وتغرق.

يجتاح الموت الغرفة.

يكتب إبسن إنها تصرخ. آه، نعم، إنّه ألم ممضّ، ينبض بينما الدماء تنضب من الجسد. والآن ينحسر إلى الأبد.

الصراخ يكون أشبه بشهيق بلا صوت.

اليوم الأول من التدريبات: يتقابل الجميع من أجل إجراء القراءة الأولى للمسرحيّة. وللمرة الأولى ينتابني القلق حول كيفيّة أدائي لشخصيّة السيدة ألفينغ. يبدو أنَّ كل ما تفعل هو أنْ تُبدي ردَّة فعل على الشخصيات الأخرى. هل سيمدّني الممثلون الآخرون بالعناصر الحاسمة التي سأُبدي ردّة فعلي عليها؟

المخرج شابّ ومتحمّس جداً. لا يُفصِح عمّا يعتقد أنَّ المسرحية تدور حوله، أو عن آمال الشخصيات ومخاوفها، على الرغم من أنّه يطلب منا أنْ ندوِّن أفكارنا حول هذا.

اليوم الثاني: المخرج لا يريد منا أنْ نستخدم نصّ الحوار، بل يريد منا أنْ نرتجل المشاهد. لا أعلم بأيّة طريقة تتصل الارتجالات بالمسرحيّة. ومع ذلك، أنا أستمتع.

اليوم الثالث: مازلنا لا نتعامل مع كلمات إبسن، ولم نسمع بعد تصوّر المُخرِج العام للمسرحية. مع ذلك، يشيع جو ودّي ونُنهي يومنا بشرب الشمبانيا.

اليوم الرابع: في هذا اليوم تبادلنا الأدوار: أنا قمت بدور القسّ ماندرز، وهو قام بدور السيدة ألفينغ، إلى آخره. ومع ذلك مازلنا بعيدين عن إبسن. متى سيُسمح لي باستخدام نص الحوار؟ بعد فترة قصيرة، بعد أنْ ضحكنا

على جون نيفيل وهو يقوم بدور السيدة ألفينغ وأنا أجعل من القسّ مهزلة، تعبنا وبدأنا نناقش أزمة الفوكلاند. ولاحقاً، ناقشنا أبراجنا الفلكيّة. ويتّضح أنَّ غالبيّة الناس الذين لهم صِلة بهذا العمل هم من برج الثور. ثم نقوم بالمزيد من الارتجال: طُلِبَ مني التظاهر بأنني أعود إلى زوجي في المنزل، الذي اكتشفَ أنني كنتُ أخونه طوال عشرة أعوام.

لا يوجد زوج في مسرحيّة «**الأشباح**» – لكنَّ المُخرِج يعتقد أنَّ من المُثير للاهتمام مشاهدة جون يؤدي ذلك الدور. وقد بذل حقاً جهداً مُضنياً لكي يؤدي الارتجال بصدق، وأخيراً طفق يبكي. وعندما يبكي، يُذكّرني بالعالِم الذي أحببت. أشعر بالحزن وبالغربة، لأنَّ أفكاري تعود إلى ماضي حياتي. لا أعلم ما صِلة هذا كلّه بمسرحيّة «**الأشباح**»، بما أنّه لا يتناسق مع أحداث المسرحيّة.

اليوم الخامس: للمرّة الأولى سُمِحَ لنا باللجوء إلى الحوار المكتوب، ولكنْ طُلِبَ منا أنْ نركِّز على شعور ***واحد*** فقط. طُلِبَ مني أنْ أُركِّز على الكراهيّة وأستخدم «شعوري الخاصّ بالكراهيّة كأمّ». لا أتذكّر أنني كرهتُ طفلتي. إنَّ استكشاف شيء داخل نفس المرء قد يكون أمراً جيداً، لكني لا أعلم إنْ كان سيفيد النسخة الأخيرة من العمل. وكلمة كراهيّة لا تتوافق مع الكلمات التي كتبها إبسن ليُعبِّر بها عن مشاعر السيدة ألفينغ نحو ابنها. ويطلب المخرج مني ألّا أقلق.

اليوم السادس: اليوم نباشر العمل على الفصل الثاني، على الرغم من أنّنا لم نمثل الفصل الأول حرفيّاً. ولن نفعل الشيء نفسه في الفصل الثاني. ونجتمع حول الطاولة لنقرأ المشاهد بأصوات مرتفعة. لا أريد أنْ أقوم فقط بتجسيد شعور الكراهية الوهمي عند السيدة ألفينغ بعد الآن، وأسأل المُخرج إنْ كان في استطاعتي أنْ أمزج الشعور بالمهانة والحزن مع الكراهيّة. فيقول «لا بأس إنْ كنتِ تودّين ذلك». ويرسل أحدهم إلينا سمكاً نيئاً لنأكله على الغداء.

اليوم السابع: نركّز على مشهد يدور بين ماندرز وإنغستراند في الفصل الثاني. ليس للسيدة ألفينغ مُشاركة هنا، وعلى الرغم من أننا لا نقوم بأداء حَرفيّ، فلا دور لي أيضاً. أخشى أنّه لم يتوفَّر لدينا وقت لاستكشاف سبب تحرّك أولئك الأشخاص وكيف يتحركون. الممثلة راكيل ويلش تتمرن على مسرحيّة استعراضيّة في الطابق نفسه الذي نتمرن فيه. وتأتي لتقوم بزيارتنا. ويُرحّب الجميع بفترة الاستراحة ونتبادل النكات معها إلى أنْ يحين وقت الغداء.

قلقي يزداد لأننا لا نقوم بالأداء الحرفي التفصيليّ للمسرحيّة، ولا نناقش فكرة المسرحيّة، ومعظم الوقت نقوم بارتجال كل شيء. أشعر كأنَّ لا شيء حقيقيّاً يحدث. وفجأة ينتابني إحساس بأننا جميعاً نشكل جزءاً من مجموعة من المستكشفين الشبان. أتمنى لو أكون في مكان آخر. في داخلي، صور من إثيوبيا – من تايلند. الواقع هو في مكان آخر – بعيد جداً عن هذه الغرفة التي أنا حبيستها طوال النهار.

اليوم الثامن: القس ماندرز ينتقل إلى كندا لكي ينتهي من تصوير أحد الأفلام. نجلس ونقرأ الفصل الثاني من دونه، فصل يُهيمن حضوره فيه. لِمَ لا نستطيع أنْ نعمل على المشاهد التي تجري بين الابن وبيني؟ الرجل الذي يقوم بدور أوسفالد شاب صغير ولم يسبق له أنْ مثَّلَ على خشبة أي مسرح كبير.

نناقش الترجمة الإنكليزيّة لكلمة Livsglede. النصّ يقول «الشغف والحياة». لكنّ «متعة الحياة» هي الأقرب إلى المعنى الذي قصده إبسن، ونغيِّرها.

لم ننجز الكثير هذا اليوم، في الغالب قمنا بتصحيح النصّ. وعندما نقوم، ***أخيراً***، بأداء المشهد الدائر بين ابني وبيني، ***نجلس***، بما أننا مازلنا لم نقدِّم الأداء التفصيليّ. يُطلَب مني أنْ أمثِّل كأنني أحبّه. وأتمنى لو نتدرب على المسرحيّة ***نفسها***.

اليوم التاسع: ما زلنا في الفصل الثاني. يعود ماندرز. وللمرَّة الأولى

يعمل المُخرِج على أداء النصّ الحرفيّ المُفصَّل. وبما أنه لم يُعِدّ أي شيء، يقوم بتحريكنا في المكان ليرى كيف يبدو الأمر: تحرّكي إلى هنا، تحرّكي إلى هناك. وأشعر بانزعاجٍ شديد. والأداء التفصيليّ الذي ينشأ لا يبدو أنّ له صِلة بما نقول، والشخصيات لا تتحرّك استجابة لمنطق الوضع. وأسأل المُخرِج إنْ كان في وسعي أنْ أبقى ساكنة إلى أنْ يتّضِح سبب تحرّكها. فيقول «اسمعي، أنا شهير بتحرّكاتي»، ولا أعلم كيف أردّ عليه.

اليوم العاشر: يُطلَب من أوسفيلد ومني أنْ نمثل دورنا الطويل والانفعاليّ في الفصل الثاني بنبرة واحدة تنم عن كراهيته لي. وعليّ ألّا أُبدي أيّ انفعال.

بعد أنْ يُبدي كراهيته لي بعض الوقت، يثور حنقي، وأتجهَّم في وجه المُخرِج بينما ابني يتلقّى ثورة حنقي.

يرتفع جبل أكثر فأكثر أمامنا. لا أعلم كيف سأستمر على هذا المنوال.

اليوم الحادي عشر: مدير خشبة المسرح، ومُساعده، والممثلون الآخرون جالسون يراقبون الارتجالات المُفصّلة المختلفة. هذا يتسبَّب في انزعاج المخرج ويستدعي ابني وأنا إلى مُختلى بعيداً عن غرفة التدريبات. وهناك نجلس مع نصينا المكتوبين ويقرأ كلٌ منا للآخر.

اليوم الثاني عشر: ستكون هذه المادة الأخيرة التي أُدوّنها في دفتري الصغير حول التدريبات على أداء مسرحيّة «**الأشباح**».

نحن نمثل مسرحيّة لإبسن التي تتألَّف من طبقات متعدّدة يجب استكشافها، وفي اليوم الثاني عشر من تدريباتنا التي تستمر واحداً وعشرين يوماً من دون مشاهدين، ما زلنا لم نبدأ بالأداء المُفصَّل للفصل الثاني. والفصل الثالث قرأناه كله مرَّة واحدة في يومنا الأول معاً.

وداعاً، سيدة ألفينغ. وداعاً، أيتها الأحلام السعيدة.

لقد أمضيت سنين طويلة ممثّلة تمارس لعبة الآخرين، سامحة للمخرجين والمنتجين والممثلين الآخرين بوضع القواعد والحواجز في سبيل تطور عملنا المشترك. وفي حين أنني أنجح باستمرار في الحياة في المُطالبة بحريّة الاختيار، لكنني أعمد في معظم الوقت إلى انتقاء دور ثانويّ في مهنتي.

عندما كنتُ أحياناً أحتجّ وأطالب بإجراء تغييرات، لم أنجح في فعل ذلك، أو على الأقل لم أجدْ مَنْ يُصغي إليّ. وبسبب توقي الدائم إلى إرضاء الآخرين، كنتُ أقبل حجّة شخص آخر بكل سهولة.

إنَّ المرء يحتاج إلى القوة ليختار، بما أنَّ الفشل قد ينتج عن الخيار الخطأ. ويحتاج إلى الكبرياء لكي لا يتألَّم عندما يقول أحدهم إنك مُخطئ أو عندما تكون كذلك حقاً.

إنَّ الحِكمة تقضي بوجوب أنْ أحاول مراراً وتكراراً طوال فترة تطوري أنْ أعثر على الحقيقة داخل مشاعري الدفينة، إلى أنْ أتمكّن من التصرُّف وِفق أولوياتي.

عندما نفتتح عرض مسرحيّة ***الأشباح*** في نهاية المطاف، يُقارن أحد النقّاد قوتي والضوء المُسلَّط على خشبة المسرح بأشعة الشمس والقمر. ويكتب آخر قائلاً إنَّ النبأ المُفاجئ في هذا اليوم هو أنني لا أُحسن التمثيل البتّة.

في أحد البرامج الحواريّة في أثناء فترة عرض ***الأشباح***، طُلِبَ مني أنْ أكرِّر أحد الأقوال المشهورة الواردة في المسرحيّة، فقط لكي أمدّ مشاهدي التلفزيون بفكرة وجيزة عن المسرحيّة.

ورغبتُ في التفضّل على الشخص المُحاوِر، الذي أحبّه، لكنّي اضطررتُ إلى الرفض. قلتُ إنَّي أستطيع فقط أنْ ألقي دوري على خشبة المسرح. لأني لست دُمية. وليس لدي حافز لأُثبت استطاعتي أنْ أُضفي واقعيّة على انفعالٍ زائف في أي مكان ومكان. إنَّ الأمر أشبه ببيع المرء روحه، وبسعر رخيص.

شاهدتُ ممثلة مشهورة في برنامج «ستون دقيقة»، فطلبوا منها أنْ «تبكي». ففعلتْ. وتدحرجت دموع بحبات كبيرة على وجنتها. وقرّرتُ ألّا أؤمن بمصداقيتها بعد ذلك.

ذات مرة قال لي ديك كافيتْ، «أنتِ ممثّلة. قولي لي إنك تحبينني بطريقة أصدّقها. طبعاً كان في استطاعتي أنْ أقول «أحبّك» لديك كافيت لو أني كنتُ أحبّه، لكني لم أرغب في الجلوس في برنامج تلفزيونيّ وأكون زائفة لمجرد أنْ أبرهن على أني أُحسِن التمثيل. فذلك لا صِلة له بالتمثيل.

سوف أكون أشبه بساحر يحمل قبعة فارغة، يُحاول أنْ يرفع من داخلها شيئاً، إرضاءً للمتفرجين.

بالتمثيل أتعامل مع شيءٍ هشّ إلى أقصى مدى، شيء خفيّ في داخلي، من المستحيل شرحه. والهدف أيضاً مستحيل. الأمر أشبه بثوب ينسج ثوباً؛ وشخصيّة تخلق شخصيّة.

كان اليابانيون يصنعون طبقاً خاصاً من أجل الزيت عليه رسم جميل ومع ذلك هو رخيص جداً. الرسم يمثّل شجرة صفصاف رُسِمَتْ ببضع ضربات ناعمة من الصِباغ لتشكّل زخرفة. ولأنَّ هذه الأطباق تكاد لا تكلِّف شيئاً، يتمّ اللجوء إلى الأطفال لتنفيذ الرسم. الخزّافون العِظام اليوم يقولون إنَّ البالغين لا يستطيعون أنْ يرسموا بتلك البراعة، لأنهم لا يتصفون بالبراءة اللازمة لرسم شجرة كاملة بخطّين فقط لأنَّ الروح لم تعُد نقيّة.

لا أعلم كيف يعود المرء إلى الروح النقيّة. ومع ذلك يجب أن يأتي التأويل من روح غير ملوّثة. إنها مركز الجاذبيّة. وهذا يؤيد الصعوبة.

لا أستطيع أنْ أكشف عمّا في داخلي – كل التناقضات، وكل الخوف والأحلام والآمال المُحبَطة التي تغلِّف جوهري؛ كل الخيارات التي فشلت في صنعها، وكل الأوجه، والألوان، والآلام، والسعادة المتصارعة – التي تشكّل كياني.

على الرغم من أنَّ نقطة البداية يجب أنْ تخرج من مركز شديد القُرب من مركز الطفل الذي يستطيع أنْ يرسم شجرة صفصاف بخطّين فقط.

***

إذا كانت حقيقة التمثيل تنتمي حقاً إلى اكتشاف روح كائن بشري آخر، فهل أستطيع أنْ أعثر عليه؟ لأنّه مَنْ هم أصحاب القلوب والأرواح الذين يمكن أسرهم؟

المتعة تنبع من مشاهدة الممثل الذي يشرح كل شيء بحركة واحدة من رأسه.

إذا لم أواظب على الإنجاز، فسوف يُسمَح لجمهور المُشاهدين أنْ ***يُميِّزوا*** ما يؤمنون به **هم** من خلالي. سوف يُساهمون بتجربتهم، ويكونون خلّاقين، ويحضرون مع أوهامهم الخاصة.

إنَّ الصعوبة الكامنة في بساطة إيماء أو حركة مثاليّة هي أنها ليست بسيطة. ومع ذلك عندما يضيع النقاء يتحطَّم كل شيء.

أتذكَّر اللحظة التي أثرتُ فيها الضحك في اليوم السابق، ورغبة مني في سماعه من جديد، غاليت في اللحظة – وفقدتها.

حالما منحني الجمهور هدية ردّة فعله الإيجابيّة، فقدتُ براءتي. وبما أنَّ البراءة تنشأ من العفويّة، من الصعب إعادة إنتاجها.

لا وعيي هو مُبدعي الحقيقيّ.
والجسد يتَّصِف بحكمته الخاصة.

ذات مرة قال تشارلي باركر لأحد عازفي آلة الساكسفون، «لا تعزف عليها، اتركها هي تعزف عليك»
يجب أنْ أدع الآلة، أي شخصيتي، تعزف عليّ.

على كل ممثّل أنْ يبتكر صوره الخاصة.

إنّ مادتنا الخام هي الحياة التي نعيش والحياة التي نشاهد، والحياة التي نقرأ والحياة التي نُصغي إليها.

ولكن لا ينبغي أنْ أستخدم الانفعالات *الشخصيّة* الحاضرة، أو الغضب الخاصّ أو الحزن الخاصّ، لأنَّ ما تفشل انفعالاتي في إنجازه بنفسها، فإنَّ كل ما *أعرف* عن الانفعال يتحقّق.

إنَّ حقيقة التمثيل بالنسبة إليّ هي أنْ أنفتح بطريقة تسمَح للشخصيّة بالظهور من خلالي. فإذا احتاجت الشخصيّة إلى البكاء، فإنَّ الشخصيّة هي التي تفعل ذلك، وليس أنا. إنها ليف المنفتحة، التي أسمح لها بالتنحّي جانباً والمراقبة. والأمر أشبه بحيازة آلة مُدوزنة بشكل ممتاز بحيث إنَّ كل لحن يُعزَف عليها يخرج صادقاً. يمكن لهذا أنْ يتحقَّق في لحظات ذهبيّة. أعتقد أنَّ تحدّي التمثيل هو العثور على ذلك الصدق.

بينما أكبر في السن، وعلى الرغم من وجود مخزون لا ينضب من التجارب، أكتشف، بصورة غريبة، أنَّ ما أريد أنْ أُدخله إلى التمثيل هو أبسط بمراحل وأشدّ نقاء. أتمنى لو أستطيع أنْ أعود ذات يوم إلى اللحظة التي أعرف فيها كيف أرسم شجرة صفصاف بضربتين فقط من الألوان.

في تعليقه المُفضَّل لديّ على التمثيل، كتبَ بيتس عن دراما النو: «كان شاب يُلاحق سيدة عجوزاً محترمة في شوارع بلدة يابانيّة، وفي الحال التفتتْ نحوه وقالت: «لِمَ تلاحقني؟»

«لأنكِ تُثيرين اهتمامي الشديد»

«هذا غير صحيح، أنا طاعنة في السن ولا يمكن أنْ أُثير أي اهتمام»، لكنه قال لها إنّه يتمنى أنْ يلعب دور امرأة عجوز على خشبة مسرح النو. فقالت، إذا أصبح شهيراً كممثل على مسرح النو فلا ينبغي أنْ يُراقب الحياة، ولا أنْ يتظاهر بأنّه عجوز أو يُغيِّر نبرة صوته. بل يجب أنْ يعرف كيف يوحي بأنّه امرأة عجوز وسوف يعثر على ذلك كله في قلبه.

قبل ملايين السنين خرجنا من المياه وزحفنا إلى الشاطئ. وعلى اليابسة الجافة بقينا نسعى وراء هدفنا، وكأنَّ حافزاً بدائيّاً حثّنا على مغادرة البحر إلى اليابسة.

خلال فترة وجودنا القصيرة على الأرض، نمارس اتّخاذ الخيارات واتّباعها، بكل ألغازها. ونتعلَّم أنَّ القليل واضح، وأنَّ أشد خيارات الحياة صعوبة يمكن أنْ تبدو مبهمة. إنَّ أشد المطامح عمقاً لها تكاليفها كما أنَّ لها منافعها.

قد لا يكون للخير والشر المُطلقَين وجود.

قبل زمن بعيد مثّلتُ في مسرحية بريشت ***دائرة الطباشير القوقازيّة***. كان اسمي فيها غروشا.

أنا جالسة بجوار طفل رضيع تخلّتْ عنه أمّه، شديدة الفقر وأشعر بخوف شديد. وعندما أنحني لكي أرفع الطفل، المتدثّر بقماش من الحرير والمخمل، المادتين النفيستين اللتين لم ألمسهما من قبل، تساورني الشكوك. سوف يُعيق الطفل تقدّمي في حياتي. إنني أكاد لا أحصل على حاجتي من الطعام والملابس. وأمشي مبتعدة.

لكنني أتوقف. وأعود. أجلس من جديد مترددة بالقرب من الطفل. أنظر إليه، ثم أُشيح ببصري عنه.

ختاماً، أرفعه. أعنّفه بسبب المصاعب التي سأواجهها الآن. وأضحك في وجهه لأنّه يُثير الشفقة ولا حول له.

أنا الوحيدة التي تمرّ به وأستطيع أنْ أساعده.

القحط. وسط أرض جرداء في أميركا اللاتينيّة، أرى حديقة صغيرة مزروعة بالخضروات، نباتات متعرشة تلتف حول عيدان نحيلة غُرِزَتْ في التربة الجافة لكي تدعمها. يهبّ عليّ عبق أزهار بريّة. هناك سيدة عجوز تعتني بهذه الحديقة التي ليست ملكها، ترتدي ثوباً فضفاضاً، وتعتمر قبعة صغيرة من القش وتُشير بفخر إلى الأرتال المختلفة من الخضروات. وتحت الأشكال التي تكاد تخلو من اللون لأوراق النباتات تُشير إلى شيء، فأتبيَّن ثمار بندورة وتقول.

«لن يأكل من هذه الخضروات إلّا أصغر الأطفال في بلدتنا. ليس لدينا ما يكفي الجميع، ولهذا طلبوا مني أنْ أعتني بالحديقة»

في صوتها افتخار: ومع اقتراب نهاية حياتها، أصبح أهالي البلدة يُبدون ثقتهم بها. وهي تعتني بشجرتين صغيرتين هما مسؤوليتها، إحداهما احترق جذعها حتى أصبح أسود اللون بفعل أشعة الشمس، وتتدلى أغصانها كالموت المُخيّم على كوخها الكائن عند مدخل فناء الخضروات.

ترفع إحدى ذراعيها نحوي، جافة وذابلة ككل شيء من حولها، وتقول، « الماء نادر عندي. والمقدار المتوفّر منها يذهب كلّه إلى هذه الحديقة. إنَّ حياتي مُكرّسة للعناية بهذه الخضروات التي لن آكل منها شيئاً»

الفيضان. على ساحل الإكوادور تسقط أمطار غزيرة لا تستطيع الأنهار استيعابها، فيتراجع الماء ويفيض على سكان البلدات. الشوارع ممتلئة بالمياه الخضراء الغليظة القِوام التي تشكّل ملاعب خطرة على الأطفال. وبينما الأطفال يتوازنون على جسور أُقيمت بشكلٍ بدائيّ بين الأكواخ وصُنِعَتْ من قصب البامبو والخشب - وهم يرزحون أحياناً تحت أحمال ثقيلة على ظهورهم - يسقطون ويغرقون، بما أنَّ قليلين منهم يُحسنون السباحة.

لا يوجد تيار كهربائيّ، والقليل جداً من المراحيض، ولا طعام، ومياه

الشرب على بُعد مسافة طويلة – وكالمعتاد، تكلِّف الفقراء أكثر بكثير مما تكلّف الأثرياء.

«نحن في حاجة إلى أشياء كثيرة» مكتبة سُر مَن قرأ

يدا المرأة العجوز في حالة حركة دائمة، تمسِّد ثوبها، وشعرها، وتضم راحتَي يديها معاً قبل أنْ تمسح دموعاً عن عينين لا ترفعهما أبداً، أبداً، عن النظر إلى الأرض التي تغمرها أصلاً المياه حتى مستوى الكاحلين.

«نحن في حاجة إلى الكثير، خاصّة لأطفالنا. إنهم في حاجة إلى مساحة يلعبون فيها. هناك بعض الحقول والمساحات الخضراء في المدينة الكبيرة، لكنها بعيدة جداً ولا يستطيعون بلوغها سيراً على الأقدام. هنا لا توجد إلّا المياه. ومستواها يرتفع طوال الوقت»

زلزال. إنّه في أواخر العقد السادس من عمره. منزله دُمِّر، ويتقاسم خيمة مع جيرانه.

«كنتُ أوشك أنْ أغادر منزلي لأتوجه إلى عملي عندما وقع الزلزال. كنتُ قد قطعتُ مسافة قصيرة عندما شاهدتُ كابلات وأعمدة التلغراف تهتز. فاستدرتُ لأعود إلى منزلي آملاً في أن تعود تلك الاهتزازات إلى حالتها الاعتياديّة من جديد، ورأيت الطريق قد أصبح كالأمواج المتحركة. حاولت أنْ أمشي فوُقعت. شاهدتُ كل ما يُحيط بي ينهار وتساءلت إنْ كنتُ سأنجو. تجمدتُ في مكاني، كالمشلول. وصلتُ إلى منزلي وفي أثناء دخولي رأيتُ منزل جاري ينهار إلى الأرض. وانبعث التراب من الأسمنت وكانت المنازل في كل مكان تتداعى والتراب يملأ الجو. لم تشتعل حرائق. ولجتُ منزلي وأنا مذعور. لم أعد أرغب في مغادرته.

«عند الظهيرة جاء أحدهم لكي يأخذني، ويساعدني في الحالة الطارئة. كنت شديد الخوف وأنا أغادر منزلي. كل تلك الجدران التي كانت تحميني – تتهاوى كلها.

«الآن آمل أنْ يُخبرني أحد ماذا سأفعل. إنني أنتظر.»

قبل وقوع الزلزال، كانت بوبايان مدينة تقليديّة جداً، ملاذاً، ومسقط رأس رؤساء جمهورية وشعراء، وكان الكولومبيون فخورين بتاريخها والنُصُب التذكاريّة وكنائس الفترة الكولونياليّة.

الناس في كل مكان يجلسون على طول الشوارع المُدمَّرة، يكتفون بالمراقبة. وكانت آليات البناء الضخمة قد باشرت في إزالة المنازل المنهارة. كان حسّ الكارثة يعمّ كل شيء.

بسبب الزلزال انفتح أكثر من ثلاثة آلاف قبر، وتناثرت الجثث خارجها. وبعضها قُذِفَ إلى مسافات هائلة. وأُشيعَ أنَّ امرأة أُصيبتْ بالجنون عندما أخذت إحدى الجثث تلاحقها إلى أسفل التلّ. وعلَّقَ مُراسل قائلاً: «لستُ في حاجة إلى مشاهدة المزيد من أفلام هتشكوك - إنها هنا»

***

مع وقوع الزلزال، برز الفقر المُستتر، كما حدث مع الجثث، وكأنَّ الزلزال هزَّ الفقر وأخرجه إلى العلن.

قام صبي صغير برسم منزل لأجلي. له حديقة صغيرة مُزخرفة بشكل جميل بالزهور والنباتات. وأخبرني بأنّ هذا منزله، على الرغم من أنَّنا كنا نجلس في الوحل ومُحاطين بأوعية مطبخ أمه وبعض العيدان التي احتفظت بها من أجل الوقود.

إنَّ حقيقة حياتهم تكمن في انعدام النقود، ووسيلة الحصول على عمل. وهم لا يستطيعون الحصول على قرض لأنهم ربما لن يتمكنوا من تسديد قيمته. وكالعديد من الآلاف غيرهم، يعيشون في ملكيّة خاصة أغاروا عليها. ولا يوجد نظام توزيع المياه ولا نظام للتعامل مع القمامة والوسائل الصحيّة. ويبدو أنَّ العيش لا يُطاق وسط الرياح الشديدة والمطر المتواصل كما يعيش معظم الموجودين هنا - بلا أسقف.

المنزل الذي رسمه الصبي الصغير فيه ستائر على نوافذه وتُحيط به أشجار الصنوبر.

إنَّ العديد ممَّن قابلت اعتبروا أنَّ الزلزال وقع نتيجة لعنة أنزلها جنرال

كولومبيّ شهير قال «عندما يسقط صليب الكنيسة القديمة، أتمنّى أنْ تُدمَّر المدينة. وسوف يحدث ذلك في يوم خميسٍ مُقدَّس»

تلك كانت النبوءة، وقد تحقَّقتْ في يوم خميس مقدس في عام 1983. والآن، بعد مرور بضعة أيام، أراقب الناس يذهبون إلى المكان الذي فيه الصليب، وهناك ركعوا وطلبوا الغفران.

العجوز الذي فقد منزله يُخبرني كم كانت مدينة بوبايان هادئة. «كانت مدينتنا تحتفل بذكرى التكريس ويسوع المسيح والصمت. وكانت جميلة، تعمّها الأردية، والزخارف والألوان»

نحن جالسون في خيمته وجدرانها الرقيقة لا تقينا من الأمطار، والعجوز يرتجف:

«إنّ الأسبوع المُقدّس في بوبايان هو الأسبوع الأكثر أهميّة خلال العام لأنَّ العديد من السيّاح يأتون وتُقام الحفلات الموسيقيّة. وتسافر الفرق الموسيقيّة الشهيرة إلى بوبايان للاحتفال بذكرى وفاة المسيح. لكننا أصبحنا نفرط في الاعتماد على السياح وأصبحنا وثنيين ومُهرطقين لأننا كنا نُقيم الحفلات بدل أنْ نعاني في ذكرى موت المسيح. وفي بوبايان هناك من يشرب الخمر خلال الأسبوع المقدّس أكثر من أي وقت آخر في العام. وقد قرَّر الرب أنْ يفعل ذلك، كما كان قد فعل في سدوم وعموريّة».

كانت تُمطر مطراً غزيراً طوال ثلاثة أيام، وتكوّم المُشردون والفقراء معاً بين أنقاض الشوارع أو ملاجئ مؤقّتة.

ثمة امرأة شابة تشعر بقدر كبير من اليأس تصفُ وضعها حتى إنها تغوص في الوحل وتجهشُ ببكاء هادئ. ذراعاها النحيلتان معقودتان أمام وجهها. أسمع ضجيج الحزن، واهناً.

هناك جدران على طول شوارع مانيلا أكثر مَنْ يتردَّد عليها هم السياح. وخلف تلك الجدران يكمن الفقر.

ملجأ. منزلها هو مترانِ مُربعَان من الورق المقوّى فُرِشَ على أرض الرصيف. على حجرها يستقر طفل. الأم جالسة وساقاها ممدودتان أمامها – تمثّل العزلة التي لم يؤثّر فيها ضجيج المدينة وهدير الحشود وحركة المرور في الشوارع. المتنزهات والأنهار والجسور والقصور الفخمة لا تشكّل جزءاً من حياتها المُستترة.

الطفل نائم، وهي تغمضُ عينيها وتحمي مركز حياتها بجسمها الرقيق المحنيّ.

حنوّ. بدا أشبه بحيوانٍ جريح، يستعرض المجتمع الفقير أمامه. وجهه الطويل يلمع من العرق. طبيب شاب حزين يرتدي بنطلون جينز ممزَّقاً، يقوم بزيارات يوميّة.

«أعاني من نقصٍ في الأدوية والفيتامينات. وليس لدي مصل من أجل دعم المناعة».

يتوقف عندما تقترب منه طفلة ويرفعها – ويضحكان كلاهما. وفي اللحظة التي تتلوّى متملّصة من بين ذراعيه وتنطلق مبتعدة، يعود إلى وضعيته الرصينة.

«أتيتُ إلى هنا لأنهم شديدو الحرمان، لكنني عاجز تماماً عن معالجتهم»

تُحيط بنا أكواخ بأسقفٍ من قصدير أسود ورمادي. يُشير إلى مياه المجاري التي تتدفّق سيولاً بنيّة اللون على طول الدرب الضيّق حيث نسير. «لن ينجو من هذا السُم المُحيط بنا إلّا طفل قويّ»

أسأله لِمَ لا يمكث مع مهنته الخاصة في الجزء المُزدهر من مانيلا.

يقول «لقد أتيتُ لكي أكون هنا وأساعد الله في تحقيق المعجزة»

الحليب. في المحل التجاري الوحيد في البلدة، نصف الأرفف ممتلئة بأنواع من حليب الأطفال التي يُروَّج لها بكثافة عبر الإذاعة، والتلفزيون، والصحف، وحتى من خلال العديد من الأطباء. وخلف جدران مانيلا، أقابل بعض الأمهات اللواتي يرضعن أطفالهن من أثدائهن. والذين يُصنّعون هذا المُنتج ويُروّجون له لكي تستخدمه النسوة الفقيرات يرتكبون مذبحة فظيعة: إذ لا تتوفّر إلّا مياه مُلوّثة من أجل مزجها بالحليب المُجفَّف – والوقود اللازم لغليها يكاد لا يكون له وجود. وتكلفة مقدار صفيحة منه حوالي خمسين بيسو، أي أكثر من أجرة يوم كامل بالنسبة إلى معظم العائلات.

من ناحية أخرى، حليب الصدر مصدر مُغذٍ، غنيّ بالعناصر الداعمة للمناعة بالنسبة إلى الأطفال. وهو مجانيّ.

وسط الأمهات اللواتي يحملن أطفالاً ضعفاء، ويُعانون من سوء التغذية، أرى امرأة تهزّ صبيّاً صغيراً بديناً بين ذراعيها، وهو نائم بكل طمأنينة – متورّد الوجنتين – وأعلم قبل أن أسألها ماذا ستجيب.

«هل ترضعين طفلك من صدرك؟»

«نعم»

هذا الطفل البالغ ثلاثة أشهر من العمر – جلبته أمّه إلى الساحة التي عقدت فيها منظمة اليونيسف اجتماعاً لنساء المنطقة. ويُصبح الطفل، الذي ما زال نائماً كأنّه ثمل من شرب الحليب، مثالاً حيّاً للأمهات اللواتي نفق أطفالهن وكنَّ ضحايا للترويج اللاأخلاقي.

كان روفوس البدين – وهذا اسمه الفخم – قد انتصر على كل الذين أغووا النساء لكي يعتمدن بصورة كارثيّة على الحليب المُجفَّف المخلوط بالمياه الملوّثة.

وروفوس ذو الأشهر الثلاثة يمثّل واحدة من قصص النجاح الحقيقيّة في العالم الثالث، على الرغم من أنّه لن يكون موضوعاً رئيسيّاً في الصحف.

الشباب. إنها ترقص وهي تمشي في الشارع. في خطواتها انضباط صارم: قدم عالية – ثم وثبة قصيرة – وتضع القدم على الأرض لكي ترتفع الأخرى. روحها أيضاً كانت ترقص، بحريّة أكثر من قدميها الحافيتين. وعندما تُريح قدميها برهة، تبقى روحها تتحرّك بفرح، وتُخبرني بأنها تبلغ من العمر مئة وخمسة عشر عاماً.

«عمرك مئة وخمسة عشر عاماً؟»

«نعم. ولا تستطيعين تبيُّن عمري إلّا من خلال رُكبتي الواهنة وآلام وركي»

إنها كاذبة! لا يبدو أنَّ فيها شيئاً ضعيفاً من وثبها جيئة وذهاباً، وإنْ كنتُ أرى الآن وهي تقف ساكنة أنَّ جسمها في الحقيقة ملتوٍ بشكلٍ ملحوظ. ثم تبدأ من جديد.

أهتف لها «لقد عشتِ حياةً مديدة»

«أنا مازلتُ حيّة لأنَّ لديّ إيماناً قوياً بالله». ثم تسكت قليلاً أمامي. «ذات مرة أُصِبت بالسرطان وأخبروني بأنّه لم يتبقَّ لي أكثر من خمسة عشر عاماً أعيشها. حدث ذلك قبل زمن طويل. ومؤخراً، سعيتُ إلى الزواج!»

باشرتْ بالرقص من جديد.

قالت مع ضحك صاخب «زوجي مات في أثناء الاحتلال الياباني»، وانقطعت أنفاسها، وبات من الصعب إجراء حديث وهي ترفع ساقاً ثم تليها الأخرى.

«إنني أفتش عن رجل وساقاي تصبحان أقصر فأقصر»

«كيف يجب أنْ يكون شكله؟»

«يجب أنْ يكون طاعناً في السن. العجاز يتمتعون بحيويّة وحِكمة. سوف أدبِّر لكِ أيضاً واحداً»

تهمس لي سراً، وقد هدأت ساقاها قليلاً، «لقد كذبتُ بشأن سني. في الحقيقة إنَّ عمري لا يتجاوز المئة وستة أعوام»

التدريس. ينقلونني إلى أحد التجمعات الفقيرة المتموضعة في المرتفعات المُشرفة على المدينة. ويقول المثل السائر: «الفقراء يحظون بأفضل المناظر في كولومبيا»

أنظر إلى الأعشاش المتجمّعة على أسلاك التلغراف التي نمر بها بالسيارة، كنقاط سوداء، متكتّلة على شكل كرات صوف جدّتي. وأتساءل إنْ كانت الطيور تستمع إلى أحاديثنا عندما نتصل هاتفيّاً. هل تستدفئ بأصواتنا المُحمّلة على الأسلاك؟

في المدرسة التي يأخذونني إليها أقابل رجلاً طويل القامة وسيماً صاحب ابتسامة جميلة تُضيء وجهاً لطيفاً.

الأطفال في مدرسته، الخالية من السقف وليس فيها أكثر من جدارين، يدرسون برنامجاً من مادتيّ الهندسة والزراعة. وهدفه من ذلك أنْ يجعلهم يُديرون مجتمعهم بأنفسهم.

يُعلّمونهم كيف يعتنون بالحديقة وكيف يمدون النباتات بخواص طبيّة. وعلى أطراف قطعة الأرض انتشرت مستعمرات نحل، تحظى باهتمام الأطفال الشامل.

قرَّر الآباء، الذين يُرحّبون بمسؤوليات التثقيف التي تُمنح لأطفالهم، أنْ يشقّوا طريقاً يصل حتى مقرّ المدرسة لكي يجعلوا الوصول إليها سهلاً على القاطنين في أماكن نائية. واليوم تخترق الطريق منطقة كانت بريّة في السابق.

بسبب المياه الملوّثة، شكّلت الأمراض التي يُسببها التلوّث مشكلة كبيرة. وباشر المُدرِّس بمعالجة مياه المدرسة بالمصافي والمواد الكيميائيّة وبنقل المعلومات إلى تلاميذه. وبعد تعلُّم تلك الوسائل، سوف يحمل الأطفال المعرفة الجديدة إلى بيوتهم.

واليوم يقوم بزيارة هذه المدرسة زعماء البلدة قادمين من مناطق نائية، ويدرسون برنامجه.

«إنني أعتبر عملي صورة لِما يمكن أنْ أفعل في الحياة»

يُخبرني بأنّه كان مُحامياً لكنّه قرّرَ أنْ يُصبح راهباً. ولكن بينما كان في طريقه إلى الدير، تبعه عدد من فقراء منطقته على الطريق يناشدونه مد يد العون لهم، بما أنّه الرجل المُثقّف الوحيد بينهم. فمكث.

وهو يمتلك بقرة. وفكروا جديّاً في احتمالات تخصيص مساحة لإقامة حديقة خاصة.

«ذات يوم سوف نجعل من تلك الحديقة كافيتيريا للمدرسة»

تمشينا حتى بركة للأسماك كان شديد الفخر بها. بركة اصطناعيّة، بعمق متر ونصف وطول عشرة أمتار، وعرض خمسة أمتار. والسمك فيها يتغذّى على أوراق السلطة، وأرى الأوراق تتحرك بينما السمك يقضمها من الأسفل. وفي النهاية، لا يتبقّى منها إلّا العروق تطفو على سطح الماء.

ليس في وسع أناس المنطقة أنْ يأكلوا اللحم إلّا في المناسبات ولا يعرفون السمك. لم يعودوا كذلك.

من جديد يرسم تلك الابتسامة التي تُضيء كامل وجهه.

«لقد رغبتُ حقاً في أنْ أُصبح راهباً، ولكن أحياناً يُطلَب منكِ أنْ تخدمي بطريقة مختلفة.

«يُطلَب منكِ أنْ تزرعي نباتاً لا تعرفين فائدته. لكنك تكونين الشخص الوحيد الذي يستطيع أنْ يفعل ذلك»

قصّة. تُريني إحدى الراهبات جوانب جمال الكنيسة التي تخدم فيها مُشيرة إلى نافذة صغيرة – والوحيدة – في أعلى الجدار.

«قبل زمن بعيد كان هنا راهب يعمل مُساعداً – معروفاً برقّته وحنوّه. لكنَّ جسمه كانت حرارته تزداد ليلاً فيذهب إلى تمثال المسيح المصلوب الذي هناك – ويستخدمه كسلَّم، ويستعين بكتفيّ المسيح لكي يمرّ من النافذة. وكان المسيح يسأله في كل مرّة، «إلى متى سيستمر هذا الأمر؟»

فيقول الراهب «إلى أنْ أعود، عندما ينصرم الليل». وذات يوم، بينما كان يتسلَّل إلى الخارج، تصادفَ أنْ علِقَ في موكب جنائزي فسأل «مَن الذي تدفنون؟»

«الأب ليونارد»

«ولمّا كان هذا هو اسمه، عاد أدراجه من جديد، مُستخدماً كتفيّ المسيح كسُلَّم للمرَّة الأخيرة. وتاب، ولزم العزلة تسع سنين وعندما كسرها في نهاية المطاف، انتخبه الناس شفيعاً مُقدّساً للكنيسة»

من جديد تشير الراهبة إلى الجدار. «كما ترين، لدينا الآن هذا التمثال في النافذة فوق تمثال المسيح المصلوب»، وتغمزني بعينها وتضحك مطوّلاً، وهي تفكر في أخيها.

طفولة. أمضيتُ الليل مع بعضٍ من آلاف أطفال الشوارع في كولومبيا، الضئيلي الأجساد والحيويين، المترعين بالخيال والاقتراحات المتلهفة إلى المكان الذي ينبغي علينا أنْ نذهب إليه معاً بعد أنْ تعارفنا. ما رأيك في

الذهاب إلى مطعم؟ ونأكل دجاجاً ورقائق البطاطا في مكان صغير قذر، وكلما قبضت أصابعهم الصغيرة على قطعة من الطعام، كانوا أولاً يُقدّمونها إليّ.

تستقر أيدٍ صغيرة قذرة على حجري ودائماً تحيط برسغي إحدى الأذرع. ويضع صبي في السادسة أو السابعة رأسه على كتفي، متظاهراً بأنّه يستغرق في النوم متكئاً بجسمه الهشّ على جسمي. وأضحك مع صِبية صغار ونتبادل القُبل واللمس، ولا نلجأ إلى أيّة لغة أخرى. إذ ما الحاجة إليها.

عندما ينال التعب منهم في نهاية المطاف، يسألون إنْ كنتُ سأوصلهم إلى المنزل. ونُحدِّد موقع شريحة الورق المقوّى التي أخفوها. خارج محل بيع مجوهرات رصيفهم ما زال خالياً. وغطاؤهم هو كيس جرّوه طوال الليل وببعض الإيماءات طلبوا مني أنْ أدسّهم داخله.

عندئذٍ ارتفعت أذرع الأطفال الصغار نحوي، وتحوَّل أطفال الشوارع الصِغار الأشداء إلى صِبية هشّين، منبوذين، يريدون مَنْ يُقبّلهم قبلة ما قبل النوم.

أستلقي معهم برهة، ويسمحون لي بضمّهم إليّ. أشعر بأنفاسهم الدافئة، وأمسّد على جباههم، وأمسك أيديهم، وأسمح لهم بالركون إلى جسد الأم التي يفتقدونها.

خلال تلك الفترة الزمنيّة، لا أعود أشعر بالحنين إلى عهد طفولتي. وفجأة، وأنا في بيتهم وتحت رعايتهم، أعلم ما الذي أبحث عنه، وسبب سفري.

لقد أصبحتُ *نفسي*.

أفتح باب غرفة لين بحذر. إنها نائمة. رأسها يتّجه نحو النافذة – لقد نسيتْ أنْ تُسدل الستارة. الشمس ترسم ضوءاً وظلاً على وجهها. أُقبّلها. من تحت أغطيتها يظهر رأسان صغيران – رأس أبيض، زغبيّ بعينين واسعتين مندهشتين، ورأس أرستقراطيّ أصفر – وبُنّي مع عينين خضراوين، عدوانيتين: رأسا قطتيها.

مُحرَّم عليهما ولوج سريرها لكنهما تنتظران بصبر في كل ليلة إلى أنْ تنام ثم تغيران على خصوصيّة سريرها من زغب البط النرويجيّ.

بما أنه في المعتاد يُتوقَّع مني أنْ أجلب الطعام، فإنهما تتركان جنّتهما الحاليّة، وكلتاهما تُصدران هريراً – وإحداهما تبتسم – وترنوان إليّ بإعجاب وحب.

وبما أني هدف سهل للمديح، لا أتركهما إلّا بعد أنْ أزوّدهما بالسردين المُعلَّب مع صلصة البندورة من النرويج (الطبق المُفضَّل لديّ الذي ترسله أمي لي بين حينٍ وآخر)

القطتان حتى لم تلاحظا رحيلي. بذيليهما اللذين يتحركان ببطء وارتخاء، ومؤخرتين متجهتين نحوي بعد أنْ فرغتا من أكل ما في طبقيهما بلسانيهما الورديين الصغيرين. لقد أنجزتُ مهمتي.

إنه صباح يوم أحد جميل من شهر أيار. حان وقت ارتفاع مد فيض الطبيعة من جديد وغمر الأرض بالمزروعات.

الطيور تغرّد: الدرّج والقُرقُف والذُعرة والسنونو والوقواق، كلها على

أعتاب نافذتها. وفي موقع قريب أسمعُ خرير ثلج ذائب يسيل من سفح الجبل.

ألوان الربيع الرشيقة والجميلة كلها تكتنفنا. وبعيداً قليلاً عن منزلنا، سوف تخرج قريباً العانس المس غران لتحفر في حديقتها الصغيرة: مرتدية ثوباً أزرق وتعتمر قبعة زرقاء، وهي نفسها تلوِّن الربيع نفسه – وأيضاً عبر فرح لقائها به من جديد.

أنا وقابيل نجلس معاً على جرف نرنو إلى زقاقنا البحريّ. إنه هادئ للمرة الأولى. ثمة سفينة كبيرة في طريقها إلى عبور المحيط.

أتذكرُ مُحيطاً ورجلاً آخر تكهّن، ونحن على الجزيرة التي تقاسمناها، «أنتِ وأنا مُرتبطان بصورة مؤلمة»

يسألني قابيل، كأنه يقرأ أفكاري، «هل تريدين مني أنْ أخبرك عن جزيرتك؟»

أشعر بالربيع من حولي، وأشعر بحركات المدّ والجزر. أُغمض عينيّ وأنا أطلب منه أنْ يصِف لي الجزيرة، وكأنّما لم يسبق لي قط أنْ تحدثتُ عن هذا من قبل.

يقول، ببطء، «أرى أميرة جميلة في الأسر. أرى وحدتها الموحشة، وأرى خوفها، وصراعها مع سيد الجزيرة. أرى الجزيرة ملجأً منعزلاً، لممارسة الحب التجريبيّ»

أهزّ رأسي نفياً. «أنت مجرد طفل، يا قابيل. أنت لا تفهم»

هذا الكلام لا يزعجه.

«أنا أحبّ الحكايات الخرافيّة. وأنتِ قلتِ لي إنّه بعد الجزيرة، لا شيء يمكن أنْ يؤذيك، وحسبتُ أنَّ خطباً رهيباً قد ألَمَّ بك حتى صرتِ منيعة هكذا. حسبتُ أنَّ شيئاً فيك مات إلى الأبد. ثم فهمت ما أردتِ أنْ تُخبريني»

«حبيبي قابيل. أنت تعتقد أنك تفهم»

همس في شَعري، «أنتِ طلبتِ مني ألّا أنسى جرحكِ ؛ جرحك الكبير، العصيّ على الشّفاء»

قلتُ في نفسي، وأنا أنظر إليه، «أنا طلبتُ منكَ أنْ تنظر إلى البرهان على أنني كنتُ أعيش بينما كنتَ أنت تقرأ».

أعزّ الناس، قابيل. أنا لستُ أميرة من حكاية خرافيّة. أنا امرأة قادتْها رحلتها إلى جزيرة لقضاء فترة من حياتها.

أنت تحبّ أنْ تستمع إلى حكاية عن امرأة تعيسة فقدتْ عقلها، وشوهدتْ على شاطئ البحر ليلاً، مازالت جميلة، تقف لا تأتي بأيّة حركة وتُحدِّق دائماً إلى البحر.

بحيث يُصبح كل شيء مُحدَّداً.

يلزم الصمت. نسترخي، متعانقين على قمة جرف في نهارٍ ربيعيّ قبل أنْ ينتقل أي شخص آخر إلى المقرّات الصيفيّة المُجاورة.

ثم يقول، ومن جديد يبدو كأنّه يقرأ أفكاري، «أودّ ذلك حقاً»

أسأله «أتودّ ذلك حقاً؟»

يُجيب «أريد منكِ أنْ تُفاجئيني. أريد منكِ أنْ تأتي إليّ وتهزميني كأي شخص آخر. وفكرة عدم تمكّني من البكاء عليك تُثير جنوني»

فجأة لا تعود الشمس دافئة. والصيف مازال بعيداً. «هل ينبغي أنْ أشعر بالهزيمة لأنني أحبّكَ؟»

يقول «يجب أنْ تشعري بالهزيمة لأنكِ أحببتِ مراتٍ عديدة»

مكتبة
t.me/soramnqraa

الجزء الرابع
الفراق

أودِّع دوراً مسرحيّاً. لقد اقتربتُ كثيراً من شخصيّةٍ لن أقابلها بعد الآن. إنّها شخصيّة للمرة الأخيرة. وكل ما عَنَتْه بالنسبة إليّ. والآن حانت ساعة الفراق.

دموع الوداع هذه ليست دموعي، بل دموع الدور، لعِلمه أنّه لم يعد له وجود بعد الآن.

لطالما عشتُ بالقرب من المياه.

المياه حملتني إلى منازلي المختلفة. والمحيطات كانت دروباً إلى مراحل جديدة من حياتي.

المياه منحتني السكينة وأنا جالسة أراقب سطحها.

السطح يمتد ويتراجع، أما تحته، فالأعماق الأبديّة، التي لا تتحرك.

أشعر بحركات الجزر والتدفق في داخلي – بالإضافة إلى ذلك الذي لا يتحرَّك في البحر.

امرأة تحتوي المحيط الذي وُلِدَ الرجل منه. والرجل يُغادر هذا المحيط في ذلك اليوم الأول من حياته ويباشر رحلته بعيداً عنه حتى النهاية.

المرأة تبقى مع بدايتها.

الرجل جزيرة، أما المرأة فهي محيط نفسها الذي تستقر فيه جُزرها.

المسافة بين الرجل والمرأة تنشأ جزئيّاً من أُطُر المصادر المختلفة هذه.

غالباً ما أشعر وأنا مع قابيل الآن بأنّي أُشوِّش الحياة التي يريدها لنفسه. أشعر بأني أُشوِّش فرصته في التناغم والخلق.

أريد للعلاقة أنْ تنتهي، ولكن لا أعرف كيف أُغادر. وعندما يغادرني شخص ما، أُصاب بالذعر وأنعى الفراق كأنما الموت وقف حائلاً بيننا.

لكننا نعيش معاً كغريبين، ونبدو كأنَّ كلاً منا يُدمِّر كل فعلٍ أو كلمةٍ تصدر عن الآخر.

أحياناً أعتقد أنَّ سبب تشبّثي بهذه العلاقة المُدمِّرة بعناد هو أنني أعلم أنّه حالما يُغادر سوف أُضطرّ إلى التعامُل مع الألم. وحدي.

هو جالس في غرفة النوم بجوار النافذة، ولا يلتفت لينظر إليّ عندما أدخل. أشعر بأنّه كان يشرب الخمر. شعره ما زال رطباً، يبدو أنّه أخذ دشّاً - ربما نهضَ تواً من السرير، على الرغم من أننا أصبحنا في أواخر النهار. يتكلَّم - موجّهاً كلامه للنافذة، وناطحات السحاب، وكل شيء آخر على الجانب المقابل من اللوح الزجاجيّ، الهواء البارد الرمادي، الضجيج والهذيان الخاصّين بنيويورك، وكل ما لا تستطيع نوافذ غرفة النوم حمايته منه. عنقه هش. أريد أنْ ألمسه. وبدل ذلك أستلقي على السرير وأُصغي.

«كانت رحلاتي تمنحني الكثير، إلى أنْ كان يوم انعكست فيه العمليّة، وأدركت أنَّ هناك شيئاً يؤخذ، ولهذا أريد أنْ أستقرّ، أنْ أمكث في مكان واحد، مكان أنتمي إليه. أنا لا أنتمي إلى هنا في غرفتك الزرقاء. ولا أريد أنْ أمشي مرتكزاً على عصا لأني أُقيم في نيويورك حيث لا أستطيع أنْ أعمل.

أنا أخشى أنْ أتحوّل إلى حجر، وأرى أنَّ الحدود مفتوحة، لكني لا أريد أنْ أجتازها بعد الآن»

يُدير وجهه الوسيم نحوي. ولأنه كان يشرب الخمر، فأنا غير موجودة حقاً بالنسبة إليه - إنَّ كلماته هي جزء من حوار منفرد شخصيّ. إنه لا يريد أجوبة، ردوداً؛ بل لا يريدني حتى كمُستمعة، هو فقط يحتاج إلى حضوري، كالمشهد المُطل من نافذة غرفة نومي. ينبغي توجيه غضبه وإحباطه نحو شيءٍ ما، وأيضاً كل ما يشعر بأنّه يخنقه. وبينما هو يغمرني بالظلام وبالحزن، يجرّني إلى بؤسه وأخشى أني سوف أغرق أيضاً. ثم يخترقني بنظره ويرفع كأساً إلى فمه ويهمس، «أنا عاجز عن فعل ما لم أفعل من قبل، ما لم تؤكّده الحياة. لهذا السبب لا أستطيع أنْ أقبل معتقدات جديدة وتجارب جديدة. عندما قلتُ لكِ، «استغلّيني» - قصدتُ بذلك شيئاً بسيطاً. أردتُ أنْ أكون ***أنا نفسي*** معك ***أنت. أنْ أكون***. إنَّ الهدف من الحياة هو هذا بالتحديد: أنْ **أكون** ومن ثم ***أختفي***. بالنسبة إليّ ليس هناك هدف آخر»

يشرب. يُغطي وجهه بيديه. أنا أحبّه. لكنّي لا أتحرّك، بل أكتفي بالاستلقاء على السرير.

ما زال يهمس «أنا أؤمن بالحب. أحلمُ بهذا. ولكن يجب أنْ يكون حبّاً غامراً. يجب أنْ يجعلني أُحلِّق. لكنّه ليس كذلك - إنّه فقط شيء آخر تافه. أنا أحبّك، لكنكِ لا تسمحين لي بالتحليق»

يُبعِد يديه. لو أُدير رأسي فسوف أرى وجهه. ربما أستطيع أنْ أتواصل معه إذا رأى في عينيّ أنني عرِفتُ ما كان يقول.

«ولكن عندما لم تفهمي سبب وجودي هنا معك، عندما لم تفهمي بالقدر الكافي بحيث تنضمين إليّ في مغامرتنا أنت وأنا، فإنكِ أخصيتني»

ويباشر البكاء. وأغادر الغرفة.

أنتقلُ إلى غرفة الجلوس. أبدأ بإخراج كتب متنوعة، أستعرضُ أحدها، ثم أنتقل إلى آخر. ثم أتخلّى عن الأمر وأحني رأسي فوق رُكبتيّ.

إنّه يقفُ عند ممر الباب، ينظر إلى يديه كأنه يراهما للمرة الأولى.

يقول لي «لقد أردتُ أنْ أخسر الماضي لكنّي لم أستطع. إنني أعيش في الماضي. والماضي لا يتغيَّر»

يُغادر الشقّة. أسمع الباب يُصفَع وأعرف أنّه سيتأخّر في العودة وهو شديد السُكر. أحاول أنْ ألمحه من النافذة.

على طول إطار النافذة عُلِّقَتْ صور للعائلة. في الصور الفوتوغرافيّة سوف نقفُ أخيراً صفاً واحداً لكي تشاهدنا الأجيال القادمة.

يُحدِّقون في الفراغ، لنْ يوجدوا من جديد هكذا. الصور تسجّل كل ما كنا عليه على مرّ الزمن.

ألمس إحدى الصور، ثم أتبع بإصبعي الخطوط المرتسمة على وجهي. وأغادر الشقّة.

في شوارع نيويورك، الغسق يزحف حول الأبنيّة والناس والسيارات والقذارة. أنا أعي ما يُحيط بي، الضجيج، الروائح ـ وفي الختام، وباستغراب، يُريحني كل ما هو معروف ومألوف.

تراودني فجأة ذكرى من عهد الطفولة في النرويج، وأنا أسبح.

أنساب خلال الليل الدامس. عارية.

أمامي، يشقّ الضوء الباهت للقمر البدر امتداد دربٍ مُضيء لا ينتهي على الماء.

من حولي الوميض الفوسفوريّ للبحر. وحيوانات البحر.

تقترب مني آلاف من الأحجار الكريمة، وعندما أندفع بينها، تفر في الاتّجاهات كلها وتتركني مرعوبة بآثارها الخفّاقة، أنا، الفتاة الصغيرة.

وسط ناطحات سحاب نيويورك السوداء والرماديّة، أرى المنطقة المُحيطة بي الأسمنتيّة اللامتناهية، وأعلم أنّه مازال الزقاق البحري النرويجيّ يتَّصِف بالسِحر.

في نهاية الليل، نجلس معاً، أضمّه بين ذراعيّ. هو يتكلَّم. وبرفق، أمسّد على شَعره، أقبّل عنقه. أدعه يعرف عبر لمسات وهمسات قليلة تنم عن الفهم أنني أُصغي. لا يستجيب لي. إنه تائه وسط عالمه المؤلم. وأعلم أننا سوف نفترق.

يعترف للّيل، غير مُدرك لقُربي منه ورغبتي في مساعدته.

يهمس، «عندما أكون وحدي معك لا أُحسِن التصرّف. أقول الأشياء الخطأ. إنني لا ألمسك إلّا ونحن في السرير. ولكن عندما نكون مع الآخرين، أرغب في ضمّك إليّ طوال الوقت. وأظلّ أداعبك لكي يشاهدني الجميع»

«الإنسان حيوان علنيّ. يفعل في العلن ما لا يستطيع أنْ يفعل في السرّ – أما بينه وبين نفسه فهو حيّ. والذكورة هي شأنٌ عام. هي استعراض. والحشود هي إلهه. والحيوانيّة هي طبيعته. إنّه يحارب من أجل تمييزه عن باقي الحيوانات»

كأنّي جالسة في ركن أراقبه وهو معي – أؤدي دوراً تمثيليّاً. وكما يحدث في السينما، يتم تمثيل الحوار.

هي: لم يعد لدي وقت لأكون أمّك أو طفلتك. لم يعد لديّ وقت لأدعك تقرِّر نيابة عني إنْ كان هذا اليوم سيكون نهاراً جيداً أو سيئاً. لم يعد لديّ وقت لتعرِّفني.

هو: أخائفة أنتِ من تبديد الوقت؟

هي: في داخلي فتاة شابة لن تموت. تقول لي إنَّ هناك أشياء كثيرة لم أقترب منها، وأريد أنْ أستقصيها كلها. أريد أنْ يكون لي جذور في نفسي فقط. ونعم، أريد أنْ أعشق.

لا أريد حباً بيني وبينك، لأنَّه اتّكال.

أريد أنْ أكسر نمطي، وبينما أفعل ذلك، سوف أعترف بالألم وبالوحشة بوصفهما حتميّين وجزءاً لا يتجزّأ من حياتي.

هو: أتطلبين مني أنْ أغادر؟

هي: أنا أخبرك بأنك لم تكن قط موجوداً هنا حقاً. لقد ظننّا أنَّ كلاً منا يُحب الآخر – لكنّنا أحببنا أحلامنا بالماضي وآمالنا في المستقبل.

هو: في هذه اللحظة – هنا والآن – أعلم أنني أحبّكِ.

هي: في هذه اللحظة – هنا والآن – أنا أيضاً أعلم أنني أحبّك، بسبب

الشمس التي تتسلل من خلال النافذة، وبسبب لون سترتك الصوفيّة – بسبب صدرك الجميل وذراعيك القويتين. في هذه اللحظة أحبّك، أيضاً، لأنَّ عينيك التعيستين – وبسبب ذكراي عن فمك، وجسمك. أحبّك لأنَّ روحك عذبة وأحبّك لأنكَ ذكيّ. لأنك تلمسني كثيراً، وتدفعني إلى الضحك. لكنَّ ذلك ليس كافياً.

هو: أنت تتكلمين كطفلة، وأنا أريد منك أنْ تفهميني. لا أريد أنْ أتركك – لأنه لا يمكن أنْ تبقي وحيدة. سوف تتألّمين وسوف تنعزلين. أنتِ لم تعودي شابة، والذين يريدونك الآن قد يريدونك للأسباب القويّة. سوف أتزوجك، وسوف أمدُّ لك يد العون عندما تحتاجين إلى مساعدة.

أنت قلقة وساخطة، ومُحبَطة أيضاً. تحتاجين إلى رجل يحميك. تحتاجين إليّ. لا تنبذيني. قد أكون فرصتك الأخيرة. ربما مازالت الفرصة مُتاحة لك لإنجاب طفل – وحينئذٍ لن تُضطري إلى الترحال حول العالم لكي تُرضي حاجتك إلى أنْ تكوني أمّاً.

هي: سوف أغادرك لأنكَ لا تعترف بي. سأغادرك لأنني لا أريد أنْ أحاول أنْ أكون كل ما هو ليس أنا. أغادرك لأنني سوف أُصبح *نفسي* وأعيش حياتي كما أعتقد أنها يجب أنْ تعاش. أغادرك لأنني المسؤولة عمّا أشعر وأعرف وأفهم.

وسوف أشتاق إليكَ – سوف أشتاق إلى دفء عناق ومعرفة شخصٍ يكون في انتظاري عندما أعود إلى المنزل، سوف أشتاق إليك للأسباب الخطأ كلها. قد أبكي وأطلب منك أنْ تعود. ولكن لا تعُد. فلن تكون ملجأي من جديد، وسبب احترامي ذاتي ولكبريائي.

هو: لقد قلتِ ذات مرة، «لم يعد هناك أي شيء يؤلمني». هل تعلمين أنكِ تقتربين من الكثير من الألم؟

هي: نعم. لكنَّ هذا ليس سبباً وجيهاً لنا لنبقى معاً. إنَّ الخوفَ سجن لا يمكن أنْ ينتج عنه حب. (***ينهض عن السرير ويجلس على الكرسي. وينظر إليها مُطوّلاً***)

هو: أنتِ تهربين من ماضي حياتك.

هي: إنني أحنّ إلى ماضيّ – ولكن في الوقت نفسه أريد أنْ أنفتح على المزيد والمزيد من الأشياء. لا أريد مخزون أعمالي المسرحيّة نفسه طوال حياتي.

أريد أنْ أُعيد تقييم عملي. لا أريد فقط جمهور مُشاهدين. أريد أنْ يكون إنجازي ذا *قيمة*. أريد أنْ *أستحق* البقاء على قيد الحياة.

هو: قبل أنْ أقابلكِ، كنتُ مريضاً. لم أرغب في الاختلاط بالناس. ولا في الارتباط بأحد. بل لم أعد أرغب في الإصغاء إلى نفسي. كنتُ في الأربعين من العمر وكنتُ مستعداً للجلوس وانتظار الموت، بمُصاحبة كتبي وموسيقاي. حتى *أنتِ* لم تتمكني من تغيير ذلك. لكنَّ الإحباط الذي أحسستُ به، الغضب الذي كثيراً ما تبيّنته فيك – وأنا أراقبك تحومين في المكان تحاولين أنْ تتبيَّني مهمّتك في الحياة – جعلني ذلك أواجه مرضي الخاصّ، وموتي الخاصّ – لكني لم أمُتْ، بل بقيتُ على قيد الحياة. أنا في حالة إرجاء حكم الإعدام. أنا لا ألغي تجربتي معك لقد تغيّرت وِجهة نظري من الحياة. ولكن بسبب قُربي الشديد من الدمار، لا يمكنني أبداً أنْ أكون كما تريدين لي أنْ أكون.

إنْ كنتِ ستغادرينني، فسوف أستأنف حياتي. وأحياناً سوف أفكّر فيك، لكني لستُ متيقّناً من أنني سأشتاق إليك.

هي: أنا التي سأشتاق.

هو: أحبّك.

هي: لستُ متأكّدة من أنني أعرف كيف أحبّ، ولكن بطريقتي الناقصة، أنا أيضاً أحبّك.

هو: ضمّيني إليك. *(تقترب منه، وتُحيطه بذراعيها. ويبقيان هكذا مدة طويلة. ثم يبتعد عنها. ويتأملها برهة. ويُغادر. تُطفئ الأنوار وتُغلق الباب خلفه. تنتهي اللقطة)*

إنها تقوم برحلة في العزلة، وتحتاج إلى فضاء.

لا كلمات ولا موسيقى ستنتعش بعد الآن داخلها، على الرغم من قدرتها على العيش من خلال نوع معيَّن من الكتابة ونوع معيَّن من الأنغام.

إنها ليست أكثر ولا أقلّ من التوهّج الذي يظهر ويختفي عن وجهها. إنها الطريقة التي تُصغي بها أو تشْرُد، وهي الجُمَل التي تنطقها وتخرج إلى الحياة أو تموت.

إنها في رحلة عزلة، شاعرة بقربها من شيء ما، على الرغم من أنَّ شعورها بالقرب ليس من الرجل الجالس إلى جوارها، وليس بسبب ذراعه التي تشدّها إليه وهو لا يزال نائماً أو تنهيده أو تقلّبه على السرير. ليس هو السبب.

لقد تقابلا وتحدثا وكلٌ منهما تعلَّم شيئاً من الآخر. ولكن عندما ذكّرتها أحاسيسها بقوة الوحدة، وعندما شعرتْ بأنها كانت تفقد شيئاً عبر فقدانها العزلة - بدأتْ تتراجع. نامت معه وظلت وحيدة وسط سكون غرفتهما، على ضوء مصباح وهو يُعانقها.

كانت تأمل في أنْ تزور حديقة مسحورة، ملاذاً، من دون أنْ تنظر خلفها - لكنها في النهاية وجدتْ نفسها تقوم برحلة عزلة متجدّدة.

سريرها هو الأرض، وتُغمض عينيها، شاعرة بالأمان تحت الأغطية وعلى الوسادة التي تسند رأسها إليها.

إنَّ ضغط ذراعه حول جسدها شيء تنساه عندما تبدأ بالغرق في الحلم بينما لا تزال يقظة.

وجفنا عينيها مُغمضان على تحديق أزرق حاضر دائماً.

في البدء تكون الحركة بطيئة، ولأنَّ عينيها مُغمضتان من الصعب معرفة إنْ كانت فقط تتخيَّل ريحاً تهبّ على وجنتيها. الغطاء يُغطي كامل رأسها تقريباً، ومن ثم حدث الأمر - في الظلام. الظلام لم يعد أسود اللون - بل انضمَّت إليه، كالومض، خطوط فضيّة ولآلئ ذهبيّة وزجاج مُشعّ.

جمال رحلتها - فضيّ وذهبيّ وكريستال متلألئ.

أقواس قُزح وهمس خافت وقُبلات رطبة.

اللآلئ التي أسرتها، قبضتْ عليها بيدها الدافئة وشعرت بها حيّة وتتحرّك داخل راحة يدها، تعِدُ بالثراء إذا بلغتْ قَدَرَها، الذي هو أشعة الشمس - الذي هو العزلة.

والآن تشعر كيف أنها تطير، تطير فوق البحر - المحيط الأزرق - الذي أصبح الآن مُحيطاً أسود - مرآة خضراء، ورماديّة. لا تستطيع أنْ تتبيَّن لون المياه.

ترفع الريح أغطية سريرها - وذراعاها الممدودتان هما شراعان. لا جناحان. ما أروع الطريقة التي تسمح لها ذراعاها البيضاوان بالانسياب بهما بحريّة، بالسقوط، بالنهوض.

هكذا، بينما هي تدوِّم وتدور وتُحوِّم فوق البحر بكل ألوانه وزَبَدَه الأبيض - تُغيِرُ العزلةُ على جسدها، تُفرغه من كل شيء ومن كل شخص.

ينتابها إحساس بالقوة جرّاء كونها وحيدة. وحيدة. وحيدة.

قوة البقاء وحيدة مع محيطات ورياح.

في قوة العزلة هذه - تترك أمان الذراع التي تضمّ جسدها، وجانب الوجه المستقر إلى جوارها على الوسادة. وتدوِّم حول الكرة الأرضيّة حيث لا تشعر بعد ذلك بطاقة الأرض، ولا ترى العشب والأشجار وكل الأشياء التي تعرفها.

إنها الضجيج الذي يكتنفها، بل الريح نفسها. وعندما تخترق المُحيط أخيراً، وتغوص وتغوص خلال المياه، تمرّ بكل الأشياء المألوفة من دون أنْ تتعرف عليها. إنها الأعماق نفسها.

أنقل هذه الأسطر عنه، لأخفِّف وطأة الألم عليّ.

أقول له: «اتّصلْ بي عندما تشاء». لا أذكر أبداً اشتياقي.

أكاد أعجز عن التنفّس. يُقال عن ذلك الافتقار إلى الأوكسجين.

أنا أعلم أنَّ هذا افتقار إلى الحب.

أحياناً أشعر كأني صيّاد السمك الذي مَنَحَه الجنّيّ المُمتنّ ثلاث رغبات. وكما فعل هو أريد العودة عن الرغبتين اللتين تحقّقتا.

تمنيت: «أوه، دعني أرى نفسي»

ثم تمنيت «دعنا نصبح عاشقين»

الآن أريد العودة عنهما كليهما.

أنا أعرف معنى صمته، قبل أنْ يستجمع شجاعته ويدعم عباراته بالحقيقة. وعندما يختفي أخيراً من دون أنْ ينطق بكلمة، أتعلَّم القاعدة الحديديّة:

غادر أولاً. اختفِ.

كيف يمكن هذا؟ فيقول لي: تجرّئي على الطيران.

هراء.

(وأعود من جديد إلى سن السادسة _ عندما توفي والدي - وتُركتُ وحيدة، بلا إرشادات)

أتعلَّم القاعدة الحديديّة: غادر أولاً.

أو مُتْ حباً بشخصٍ عاجزٍ عن الحب.

لم أحظَ قط بفرصة إخباره بشعوري:

«لأنني أحبّك، أثق بك. ولأنكَ تتركني أحبّك، كنْ حارساً لحبّي.

«وبما أنكَ الحارس، وينبغي لهذا أنْ ينتهي – أوه – أرجوك احرص على ألّا يكون ذلك مؤلماً كثيراً»

الجزء الخامس

مدّ وجزر

يسوؤني أنْ أدرك أنّه سيكون من دواعي حسن حظي ألّا أكتشف ما الذي أبحث عنه، بما أنني بهذه الطريقة لن أكفّ عن البحث.

أريد أنْ أختبر ما كنتُ عليه *حينئذ*، وأنا صغيرة جداً – الأصوات والروائح العطرة، أوجُه طفولتي. أبحث عن الطفلة داخلي. عن البراءة المفقودة. والنقاء والحرية. والحقيقة. لكنني اكتشفتُ أنَّ كل ما *كان* قد اندثر إلى الأبد.

ربما من غير الواقعيّ محاولة استرجاع ما كان موجوداً في السابق، على الرغم من أنّه بصورةٍ أو بأخرى هذه رحلةٌ نقوم بها جميعاً عندما نبدأ نشعر بفنائنا.

الطفلة داخلي كانت تعرف ما لن يعرفه البالغون أبداً. وعلى امتداد زمن طويل نظرتُ إلى طفولتي وتساءلتُ إنْ كانت حقاً تخصّني. نظرتُ إلى الشخص الذي هو أنا، وبنظري إليها اكتشفتُ أني ضائعة.

كلما تعلَّمتُ أكثر، قلَّ فهمي؛ وكلما تذكّرت، شعرتُ أكثر بالضياع.

بينما أنظر إلى نفسي أفرُّ من نفسي.

حاولتُ أنْ أدفع الأشباح داخلي إلى الكلام.

جدَّتي، التي تتنهّد في سريرها، لا تعي أنّني أراقبها، أنا الفتاة الصغيرة. وبعد ذلك بعشرين، أو ثلاثين عاماً، أعدتُها، جذريّاً، إلى الحياة.

إنها سيدة ماكاو العذبة، والسيدة ألفينغ في مسرحيّة إبسن. هي حنّة في أوشفيتز والأم الباكية في الفيليبين. هي أنتَ، أيضاً، يا قابيل - وأتمنى لو أني عرفتُ هذا في أثناء وجودك هنا.

الصرخة الأعلى هي بلا صوت وتبقى معنا فقط بوصفها سرّنا الخاصّ.

أحياناً كنتَ من فرط البؤس بحيث تقول، من دون أنْ تضحك، «لن أكون أبداً محظوظاً، حتى وإنْ أصبحت مشهوراً، ولن أعرف ذلك. إذا وقعتْ بذلتي إلى خارج النافذة، فسوف أكون في داخلها».

آه، يا قابيل.

قبل أسبوع راودني حلم.

رأيتُ فتاة صغيرة تزحفُ في شوارع نيو دلهي.

بما أنّها مُعاقة ومُتعبة، كانت تجد صعوبة في الوصول إلى الرصيف الذي بدا أنّها متوجهة نحوه. السيارات تمرّ بها مُسرعة. رفعتَها وحملتَها بعناية، مدة طويلة، في انتظار تغيّر ضوء إشارة المرور، إلى أنْ أدركتَ أنّها لا تعرف وِجهتها، هي فقط تريد أنْ تجتاز الشارع. إنها تضحك وهي بين ذراعيكَ، تستكين هناك كملكة صغيرة، تستمدّ متعة ظاهرة في سيركما معاً. وفجأة تشير إلى ساحة واسعة مزروعة بالعشب الأخضر، والأشجار، والأزهار، من أجل تجميل البقعة. الحب يشعّ من عينَي تلك الطفلة عندما توضَع على الأرض الطريّة. يطلّ من عينيها الحب وكأنّكَ بالعثور على هذا الملاذ، فتحتَ الباب المؤدي إلى الجنة. ويشع كامل وجهها عليك كالشمس. وترتاح تحت الأشجار الملتوية كلها، مثلها - وتتدفق عليها الظلال الباردة من دون توقف.

إنها شريدة ومنبوذة، ولكن بينما تنظر نحو الأعلى إلى أوراق الأشجار والأغصان والسماء الزرقاء، تبدو لبرهة من الزمن أنها مترعة بالسعادة.

أنا لا أسعى إلى تغيير العالم. بل إني لا أفهم ***ما الذي*** سيُغيِّر العالم. كل ما أعرف هو أنَّنا جميعاً نُخلِّف وراءنا بعض الآثار، على الرغم من أنَّ مراحل رحلاتنا مختلفة.

لين وأنا نمشي على شاطئ المُحيط – حركتا المدّ والجزر تتغيّران.
الريح ضمَّخت وجنتيها بالحُمرة.
أم هل هي الريح؟
إنها هادئة – ثمة ابتسامة صغيرة تلهو على وجهها.
لم أر تلك الابتسامة من قبل.
إنكِ تكبرين في السن بالابتعاد أكثر، يا ابنتي، بينما أتعلَّم كيف أُحرِّركِ.

دعيني أحكي لكِ حكاية:

«كان هناك رجل في التسعين من العمر يزرع شجرة. مرَّ به ثلاثة صِبية فنظروا إليه أخذوا يدورون حوله ويسخرون منه. وأخذ كل منهم يقول للآخر، «كان يمكن أنْ أتفهَّم لو كان يستخدم يديه لصنع شيءٍ يُساعد على تزجية الوقت، أما أنْ ***يزرع*** وهو في مثل سنّه!»

«تظاهر الرجل بأنّه لم يسمع ما قالوا. وقام بهدوء بحفر حفرة وزرع شجرته. وبعد فترة قصيرة، توفي»

«بعد ذلك بثلاثين عاماً، كان الصِبية الصِغار قد بلغوا منتصف العمر،

ولدى مرورهم بإحدى الشجرات، أخذوا يستمتعون بأكل ثمارها الرطيبة، التقطوها وتقاسموها – من دون شعور بالامتنان»

«إلى متى ستظلين تحكين لي حكايات، ماما؟»

«إذا تركتني أفعل – فسأبقى دائماً»

«هل ستشعرين بالوحشة بعد أنْ أغادر المنزل؟»

«كلا. لكنّي سأفتقدك كثيراً جداً»

«أتعتقدين أنكِ سترتبطين بعلاقة حب من جديد؟»

«أنا متأكّدة من أنني سأفعل»

هناك قصة كنتُ أسمعها وأنا طفلة – عن قطرة ثلج أزهرت في شهر نيسان، آملة في أنْ تقابل الورد، أمير أحلامها.

«أنا في انتظار الورد، المتوّدِّد إليّ، ابن الصيف. لقد حدَّد هنا مكان التقائنا، وأكاد لا أصبر على الانتظار. لقد وصلتُ في وقتٍ مبكرٍ جداً، لكنّه سيأتي»

وهكذا في كل فصل ربيع جديد كانت قطرة الثلج تظهر بعد ذوبان الثلج مباشرة، يحدوها الأمل وتنتظر بلا طائل.

كنتُ أتصرف كقطرة الثلج تلك – أتساءل إنْ كان الورد سوف يترك بتلاته الحمراء لي كعلامة، بعد سماع قصتي. إلى أنْ أصبحتُ ببطء – خلال سنوات علاقتي بقابيل – حكيمة. وكلما فهمتُ أكثر، تعلَّمتُ أكثر؛ وكلما تعرّفتُ على الآخرين، تذكّرتُ أكثر. وعندما كان الأناس الذين لم أعرفهم من قبل يلمسونني بحنوّ، لا أعود أحتاج إلى البحث عن نفسي.

***

لين وأنا نتمشّى بصمت. الظلام يزداد حلكة. ونتوجّه إلى المنزل. بصورةٍ ما اقتلِعتْ زهرة زرقاء صغيرة من جذورها، وحملتها الريح باتجاه الشاطئ – والآن، علقَت بحركة المد والجزر، وأخذت تطفو مبتعدة ببطء عنا.

أقول لطفلتي «إنَّ زراعة زهرة حقيقيّة يستغرق وقتاً طويلاً، زهرةً تدوم. نحن نأتي مع كتبنا وأوراقنا وكل قياساتنا، ونحاول أنْ نزرع نبتة مثاليّة تظل تزهر إلى الأبد وتُضفي أهميّة إلى حياتنا»

أنظر إليها. لا تزال تبتسم - ولا تتكلّم.

هناك في إثيوبيا أمٌ ذراعاها فارغتان الآن لأنها تعيش بلا أي خَيار. لقد راقبتها وهي ترفع يداً تمتلئ راحتها بالماء الملوّث نحو طفلها الجائع.

وهناك فتاة صغيرة من بانغلادش احتفلتْ بإقامة مضخّة للمياه في قريتها: «أريد أنْ أُريكِ كل ما هو رائع في حياتي. أريد أنْ أُريك بيتي، وعائلتي، وكل ما ينمو»

وهناك أستاذ شابّ في كولومبيا تُضيء ابتسامته كامل وجهه. «لقد أردتُ حقاً أنْ أصبح راهباً، ولكن أحياناً يُطلب منك أنْ تهدمي بطريقة مختلفة. يُطلَب منكِ أنْ تزرعي من دون أنْ تعرفي الفائدة من ذلك. لكنكِ الوحيدة التي تستطيعين أنْ تقومي بالعمل»

هناك امرأة في النرويج تحاول أنْ تفهم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفهرس

كلمات امتنان 7

الجزء الأول: أتغيَّر 9

الجزء الثاني: خَيَارات 73

الجزء الثالث: أشباح 105

الجزء الرابع: الفراق 163

الجزء الخامس: مدّ وجزر 175

ليف أولمن

خَيَـــارات

"من عاش حياة مثل حياتها" بهذه الكلمات المعبرة استقبل النقاد كتاب "خيارات"، لليف أولمان الممثلة والمخرجة والكاتبة النرويجية التي ارتبطت بعلاقة مع المخرج السويدي المعروف انغمار بيرغمان هي الأشهر في عالم السينما. لقد ألفت ليف أولمان مع بيرغمان نوعاً معيناً من الكاريزما الثقافية في أواخر القرن العشرين، عدت مثالاً جمالياً مغرياً في مزيجه من الجدية العالية والحب الرائع.

هذا الكتاب السيرة يختلف عن كتب السيرة الذاتية المعتادة حيث يأخذنا في رحلة لاستكشاف حياة ليف العاطفية وبالتالي تصوير تطورها بشكل غير مباشر، ثمة الكثير من الأفكار الرائعة حول "معنى الحياة" حيث تلقي ليف بنفسها في محاولة مهمة لإيجاد حلول لمشاكل اللاجئين التي كانت مستعرة في جميع أنحاء العالم، مع تربية ابنة مراهقة، والبحث عن الحب في حياتها الخاصة. لقد تمكنت من التعمق في المعنى الحقيقي للحب وكانت تتعلم احتضانه بالكامل. إنها امرأة ذكية بشكل واضح، على الرغم من أنها تعترف بأنها تركز على المشاعر أكثر من الحقائق أو الأفكار.

دراسة

تصف أولمان بتفصيل هادئ عملها، سفراتها، علاقتها بابنتها المراهقة لين التي تزدهر من طفل متجهم إلى امرأة شابة. وتصف بتفصيل أهم علاقة غرامية مع رجل تسميه "هابيل" حيث يتحرك ليكون معها، لكن حبه لها لا يكفي. تصف عملها في المسرح. وأخيرا، تفكر أولمان البالغة من العمر أربعين عاما في الحياة، والوقت الذي مضى، والأشخاص الذين تهتم بهم.

"كاتبة جميلة، امرأة عاطفية جدا .. حساسة للغاية وملهمة"

نيويورك تايمز

"ليف أولمان هي واحدة من أعظم الممثلين في العالم على الإطلاق ومخرجة بارعة للغاية وقد كتبت بحساسية عميقة لا شبيه لها على الاطلاق.

الواشنطن بوست

telegram @soramnqraa